عبد الله حمد الحقيل

رحلات وذكريات

الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
جدة - المملكة العربية السعودية

الطبعة الاولى ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م- الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية

ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

رحلات و ذکریات



عرض وتحليل

بقلم الأستاذ محمد حسين زيدان

يبدأ الكتاب بتقديم بقلم الشيخ الأديب عبدالله بن محمد بن خميس جاء فيه أن هذا الكتاب هو مثل حي من أدب الرحلات يقف بنا من عالمنا المعاصر على أنماط مختلفة وأمم شتى يصور من بيئاتها، ومؤلف الكتاب الأستاذ عبدالله الحقيل رحالة معاصر جاب الشرق والغرب والشمال والجنوب وركب الطيران ومتون البحار والقفار، وطعم عرضه بشارد من الشعر وسائر من الأمثال ومأثور من الحكم، وتوقع أن يجد منه القارىء الفائدة والمتعة.

أما المؤلف نفسه فقد جاء بمقدمة ترحم فيها على أسلافنا الذين سلكوا فجاج الأرض وجابوا الأمصار وتحملوا الشقاء إذ صارعوا هياج البحر وأعاصيره، وتكبدوا الارهاق في جوب القفار متعرضين للفح الهجير و برد الزمهرير، وتعرضوا لقطاع الطرق، من أمثال ابن جبير وابن بطوطة والسيرافي و ياقوت الحموي والهمداني والبكري والمسعودي والأصمعي والأصفهاني والزمخشري وابن وهب وابن فضلان وأبي دلف وغيرهم عملا بقوله تعالى «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض». وحرصوا على تدوين آثارهم. وكم كان لتلك الرحلات من أثر علمي كبير في تدوين ثقافات الأمم وحضارتها وعلومها ولغاتها وآدابها. أما اليوم فقد تطورت وسائل المواصلات وأصبح السفر متعة وما كان يقطعه الأقدمون في عام أصبح المسافر في هذا العصر يجتازه في بضع ساعات...

ولكن للرحلات أهميتها الكبيرة في اكتساب الخبرات واقتباس المعارف في شتى المجالات، وفي الأمثال: من يعش ير كثيرا، ومن يمش ير أكثر. ولكن للأسف قليلون هم الذين يجسدون مشاهداتهم و يدونون انطباعاتهم، و يعتذر للقارىء ان جاء الكتاب خواطر وطرفا من ذكريات محاولا من خلالها التعريف بالبلدان التي أتيح للمؤلف زيارتها.

ثم يبدأ الكتاب بوصايا للمسافرين مما أوصى به بعض حكماء العرب القدامى و بعدها يبدأ الكاتب في ذكر رحلاته في الخليج العربي في ١٢/ ٤/ ١٣٩٧هـ حين بدأ بزيارة الكويت بالطائرة ثم بالبحرين ثم قطر فعمان ثم دبي ورأس الخيمة والشارقة وعجمان وأبوظبي.

و بعدها يعود بنا الكاتب حيث ينقلنا في رحلة حين غادر الكويت فزار البصرة والزبير والأهواز وعبدان.

وكان الكاتب قد أتيح له في صيف عام ١٣٨٠ هـ أن يزور الشام: دمشق فبيروت وما حولها من المصايف فطرابلس ثم صور وصيدا وجبيل ثم إلى عمّان ثم إلى القدس حيث أتيح له أن يصلي الجمعة في المسجد الأقصى ثم إلى نابلس فرام الله فالبيرة والخليل ثم عاد إلى عمان ومنها إلى دمشق فحلب ثم حمص وحماة ومعرة النعمان وأزمع الرحلة إلى تركيا المسلمة مرة فخط لنفسه خط رحلة: بيروت ــ طرابلس ــ اللاذقية ــ أنطاكية ــ الاسكندرونة ـ أضنة ــ أنقرة ــ استانبول.

وفي مرة زار مصر: القاهرة ــ والاسكندرية والسويس وبورسعيد. ورحل إلى الخرطوم جوا عام ١٣٩٥هـ وزار كذلك أم درمان في السودان واشترك في رحلة على النيل رأى فيها جبل الأولياء.

أما الجزائر فقد كان من حظ المؤلف اختياره عام ١٣٨٤هـ للتدريس فيها هو وبعض رفاقه اسهاما من السعودية في إنجاح التعريب فيها وعندئذ غادروا الوطن الحبيب ومروا بالقاهرة وبنغازي وتونس، وحين وصلوا الجزائر العاصمة كانوا أول بعثة عربية تصل إلى الجزائر من المشرق العربي بعد استقلالها. وأمضى المؤلف عامين دراسيين في وهران حيث عمل أستاذا للغة العربية وآدابها، وزار تلمسان وعنابة وغيرها، ورحل عن الجزائر وهو يحمل عنها أجمل الذكريات.

وفي عام ١٤٠٠هـ أزمع الكاتب زيارة المغرب العربي وبدأها بزيارة تونس وفيها زار تونس العاصمة وسوسة والقيروان. ومن تونس أقلع إلى المغرب الذي كان قد زاره من قبل أثناء قيامه بالتدريس في الجزائر، وهبط في مطار الدار البيضاء ومنها إلى الرباط وفاس ثم مكناس.

أما عن الغرب فقد كانت مدينة روما هي أول مدينة أوربية يزورها وهو في طريقه إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وإلى جانبها زار مقر الفاتيكان ومن إيطاليا إلى شيكاغو. ثم غادر شيكاغو إلى لندن ثم إلى نزهة في الريف الإنجليزي.

أما الأندلس فكم هفت نفس الأستاذ عبدالله حمد الحقيل إلى زياراتها وإلى مشاهدة مفاخرها العربية الإسلامية التليدة، فارتحل إليها عام ١٣٨٤هـ من الجزائر حيث كان يقوم بالتدريس فيها وكان معه في الرحلة مجموعة من الأصدقاء فمروا بالحدود مع المغرب حيث مدينة وجدة المغربية ثم الناظور ثم إلى مليليه، حيث ركبوا البحر قاصدين ملقة ثم توجهوا إلى غرناطة ثم إلى قرطبة، وبعدها توجهوا إلى مدريد عاصمة أسبانيا، ولقد كان موفقا في تصويره للفردوس المفقود «الأندلس». وفي نفس عام ١٣٨٤ زار الكاتب جبل طارق ومنها قفل مبحرا إلى طنجة المرفأ المغربي.

ونعود إلى رحلة الكاتب في الولايات المتحدة الأمريكية فنجده قد وصل مطار نيويورك ثم

توجه صوب ولاية ميتشقان حيث هبط في مدينة لانسنق وفيها زار جامعتها بقصد الدراسة في مركز اللغة الانجليزية وكان نصيبه السكن مع زميلي دراسة من الولايات المتحدة الأمريكية نفسها. وزار الكاتب ولاية أكلاهوما التي تضم عددا من الطلاب العرب وحضر حفلا أقاموه ألقى فيه المؤلف إحدى قصائده الطويلة مشاركة في تلك الليلة العربية كما تحدث عن مراكز الثقافة الاسلامية في العصور السالفة. وفي أكلاهوما زار المؤلف مدينة نورمان وهي أحدث مدنها وفيها جامعة تضم عددا من الطلاب السعوديين.

كما قام المؤلف الأستاذ عبدالله الحقيل بجولات عديدة في عدد من الولايات الأمريكية مثل إنديانا وشيكاغو وأوهايو وبنسلفانيا وتكساس وواشنطن وميزوري وكاليفورنيا وواشنطن ونيو يورك.

وقد أعجب الكاتب حصول معظم الجامعات في أمريكا على الاهتمام والعناية المناسبة، واهتمام بعض جامعاتها مثل جامعة بلومنجتن باللغات واللهجات ومنها العربية، والجامعة هناك —على ضخامتها— مكان هادىء بعيد عن ضجة المناطق الصناعية، وهي حركة دائبة. ورئيس الجامعة لا يقل منصبا عن أكبر منصب في الدولة، ومما أثلج صدر الكاتب اشتراكه في حفل اسلامي أقامه اتحاد الطلاب المسلمين في أمريكا، تحدث فيه عن العدالة في الإسلام. والكاتب شديد الاعجاب بمكتبة الكونجرس في واشنطن العاصمة ويراها أضخم مكتبة في العالم ويديرها أكبر الكفاءات العلمية وتوجد بها خمس عشرة قاعة للمطالعة، ومن الكتب العربية (فقط) ثمانون ألف كتاب ومائتان وخمسون ألف عنوان لكتب ومؤلفات عربية.

وثمة رحلة للمؤلف في الشرق الأقصى في عام ١٣٩٩هـ حينما اتجه الكاتب طائرا من الظهران إلى سيول عاصمة كوريا الجنوبية ضمن وفد سعودي، وترحم على أسلافنا إذ جاء في (المسالك والممالك) لابن خرداذبة: أن بعض التجار المسلمين قد وصلوا إلى كوريا ومن سيول اتجهوا إلى مانيلا عاصمة الفلبين، وكم كان سرور الكاتب عظيما حينما التقى في قاعة الفندق بفلبيني مسلم من المحافظين على دينهم، كما أتيح له أن يزيد أحد المبشرين الايطاليين الكاثوليك معرفة بالإسلام. وأن يحاج أستاذاً جامعياً يدين بغير الإسلام في هذا الدين الحنيف وفي الدفاع عن الأدب العربي.

وزار المؤلف جزيرة سنغافورة وقام برحلة بحرية تحوم حول الجزيرة، وبعد تمضية بعض الوقت في بانكوك عاصمة تايلاند غادرها المؤلف إلى كراتشي في الباكستان وقد كان انعقاد مؤتمر الغرف التجارية الاسلامية فيها مما سر الكاتب، ويختتم الكاتب بخاتمة عن فوائد السفر.

وبعد فهذا الكتاب الذي يقع في ٢٠٧ صفحة من الحجم المتوسط كبير الفائدة والمتعة ذلك أن المؤلف —كما شرح في السياق— كان يستعد دائما قبل الذهاب إلى أية بلد بدراسة تاريخه

وجغرافيته ومعرفة شيء عن الأحوال فيه، ولهذا فقد أمدنا بالكثير من هذه المعلومات المفيدة عن البلدان التي زارها، وعلى سبيل المثال فانه عندما يرحل إلى الباكستان فانه يذكر لنا شيئا عن المسلمين في الهند وحالهم وظروف استقلالهم بزعامة محمد علي جناح، و يذكر شاعرهم الكبير اقبال، وفي الأندلس يقف أمام آثار المسلمين المبهرة هناك ويحدثنا عن هذا التاريخ المجيد في اقتدار يجعله ينسج التاريخ والخواطر مع الوصف الحي للمعالم المعاصرة، ولشيء من حياة الناس، في نسيج واحد ملتحم جميل.

ولأن الكاتب مسلم صادق الاسلام فقد كان يهمه في البلدان المسلمة التي زارها أن يزور جوامعها وآثارها الاسلامية المجيدة، وحيث كان المسلمون أقلية فقد كان حريصا على مقابلة بعضهم للاطمئنان عليهم. ولأنه أديب بل وشاعر فكثيرا ما تداعى الشعر في سياق وصفه فقد أورد بعضاً من الشعر العربي الجميل، ولما كان الكاتب مفكرا مهتما بالثقافة فلا عجب أن أولى اهتماما كبيرا بالمكتبات والمتاحف و وصفهما.

محمد حسين زيدان

تقديم

بقلم الشيخ الأديب عبدالله بن محمد بن خميس

استأثر أدب الرحلات باهتمام كثير من طبقات مثقفي العالم قديما وحديثا.. وعني به أعلام بارزون عبر أطوار الثقافة العالمية على اختلاف مناهج الرحل من أجناس العالم..

فإلى جانب حب الاستطلاع في قراءة الرحلات والمتعة وتنقل الذهن وتقفي الجوانب المتعددة من أحوال العالم ومعرفة عاداتهم وتقاليدهم والإحاطة بأوصاف بلدانهم الطبيعية وطقوسها ومناخاتها..

إلى جانب هذه وغيرها فهي مصدر للمؤرخ وللجغرافي وللاجتماعي.. وفيها قدوة للمقتدي وأسوة للمؤتسي وكشف عن جوانب تهم كثيراً من طبقات الناس..

هذه بعض المميزات التي أعطاها أدب الرحلات..

ولا يسعنا هنا أن نستعرض تلك الآثار وأصحابها من عرب وغير عرب في قديم الزمان وحديثه وفيهم الأعلام المبرزون والعلية والأفذاذ..

وأمامنا الآن مثل حي في أدب الرحلات يقف بنا من عالمنا المعاصر على أنماط مختلفة وأشكال متباينة وأمم شتى وعوالم واسعة.. يستقرىء من واقعها و يعرض من صفاتها و يصور من بيئاتها..

أمامنا أثر رحالة معاصر جاب الشرق والغرب والشمال والجنوب.. وركب متن الطيران عشرات الساعات ومتون البحار والقفار والفيافي مثلها.. تنقل ودرس واستطلع واستقصى، وحقق ودقق ووقف واستوقف وضمن ما حملته ذاكرته ووعاه قلبه وسجله يراعه وما شد انتباهه واستجلب نظره... ضمنه هذا الأثر فجاء خلاصة تحمل في طياتها صورا تنداح أمام القارىء وتحلق به في أجواء مختلفة وخواطر متفرقة.. لا تقف عند الانسجام والمتعة فحسب وإنما تهدف أيضا إلى الأسوة والقدوة إلى العظة والعبرة إلى ما يترك أثرا حسنا يعود على بلادنا الحبيبة باستنهاض الهمم وحفز القدرات واستجلاب الغيرة.. جاب المؤلف من وطننا العربي عراقه وشامه ومصره وخليجه وسودانه وتونسه وجزائره ومغربه وأندلسه..

وجاب من بلاد الغرب أجزاء من أوربا ومن الولايات المتحدة الأمريكية.. ومن شرق جنوب آسيا جل بلدانه وأممه.. ومن كل أعطى وانتقى ووصف وأجاد وأفاد..

وأسلوب مؤلفنا ــ كطبعه ــ هادىء أمين رزين.. لا نشاز في تعبيره ولا تكلف في لفظه ولا مبالغة عندما تدعوه العاطفة حالة رضاه أو سخطه.. تغلب عليه النزعة الأدبية فيطعم عرضه بشارد من الشعر أو سائر من الأمثال أو مأثور من الحكم..

ولا بدع فإن مؤلفنا الأستاذ عبدالله بن حمد الحقيل أديب بارع ذواقة.. ألف في الثقافة والأدب والتربية والتراث والاجتماع.. فله سبعة مؤلفات نشر بعضها.. وتجود أعمدة الصحف ووسائل الإعلام بفيض من عطائه ومد من فكره.. ودرس وحاضر وطرق باب الشعر وشارك في النقد وروى وحقق وأخذ من كثير من العلوم بطرف..

ولا غرو فهو يتبوأ مكانا من ظل دوحة كريمة ذات علم وأدب وفضل أسرة آل الحقيل ولعمري إنه لتصغير تعظيم فهو حقل مخصب ينبت العلم والأدب ــ والفضل فمنهم العلماء المبرزون والشعراء والأدباء ــ والنسابون ويأتي منهم في الذروة الشيخ القاضي الأديب النسابة حمد بن ابراهيم الحقيل صاحب المؤلفات المعروفة وعلى رأسها كتاب (كنز الأنساب).

وبعد فهذه مقدمة موجزة تقل عن مستوى هذا الأثر الذي سيجد القارىء فيه من الفائدة والمتعة ما هو خليق به.

عبدالله بن محمد بن خميس

مقدمة الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، والصلاة والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم و بعد:

فقد كانت الرحلات فيما مضى عملا شاقا وأسلوبا مضنيا حيث كان الرحالة يتعرضون لحالات كثيرة كتقلب المناخ وتبدل الأجواء إلى جانب ما يصادفونه من الخوف والضياع وطول الطريق ومصارعة الأمواج ووحشة المحيطات. و يروى عن أحد الحكماء قوله: المسافر يجب أن يكون له عينا صقر ليرى كل شيء وأن يكون له ظهر جمل ليتحمل أي شيء وأن يكون له ساقا نعزة لا تتعبان من المشي وأن تكون له حقيبتان إحداها مال والأخرى صبر.. إلخ.

ورحم الله أسلافنا الذين سلكوا فجاج الأرض وجابوا الأمصار وركبوا متن البحر وصارعوا هياجه وتحملوا اضطرابه وواجهوا أعاصيره، وتكبدوا العنت والإرهاق في جوب القفار والسير في الفيافي والمفاوز والتعرض للفح الهجير و برد الزمهرير وقاوموا صعوبات الطريق وما فيه من مخاطر ومتاعب، وصبروا على الأكل المر والغذاء الجاف والفراش الخشن وشربوا الماء المالح وتعرضوا لقطاع الطرق ولكنهم مع ذلك تحملوا تلك المشاق، وامتطوا متن الخطر وصعوبة الطريق وعناء الرمال والتردد بين المنازل والديار والحزون والغيطان والجبال والوهاد من أمثال ابن جبير وابن بطوطة والسيرافي و ياقوت الحموي والهمداني والبكري والمسعودي والأصمعي والأصفهاني والزمخشري وأبى وهب القرشي وأبى فضلان وأبى دلف وغيرهم كثير من المحدثين والمؤرخين والرحالة والفقهاء وعلماء اللغة ونقدة الأدب والشعر، فقد جابوا الشرق والغرب وأنحاء كثيرة من العالم المعروف آنذاك ونقبوا في الديار و بحثوا عن الآثار بين الوهاد والنجاد بقصد الفائدة والاعتبار والنظر في ديار وآثار من مضى من الأمم والسير في تلك الديار للتعرف على مصيرهم كما قال تعالى «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض».

لقد حرص أسلافنا على تدوين تلك الآثار فوصفوا أحوال الأمم وطبائع الشعوب وصوروا العادات والتقاليد فأصبحت آثارهم معالم يهتدي بها لأنهم كانوا حريصين على التحقيق ونشدان الحقيقة واقتناء الكنوز العلمية، فكم من عالم وأديب ضرب آباط الإبل وركب صهوات الخيل من دمشق إلى بغداد ومن الكوفة إلى صنعاء ومن الرباط إلى حلب ومن طرابلس إلى قرطبة

ومن الموصل إلى نجد لأجل التأكد من صحة حديث أو رواية قصيدة أو التحقق من مكان وتدوين القصص والحكم والأخبار والأمثال، ينتقلون مع البادية و يتتبعون العرب في مرابعهم ومراتعهم لحفظ أشعارهم وتدوين قصائدهم وتسجيل آدابهم ووصف مدنهم وحياتهم، ولقد اتسع نطاق الرحلات واستمرت فترات طويلة، وكم كان لتلك الرحلات من أثر علمي كبير في تدوين ثقافات الأمم وحضارتها وعلومها ولغاتها وآدابها.. وكم من أناس تعرضوا للضياع وألقوا بأنفسهم إلى التهلكة في سبيل ذلك ونجا من نجا من أمثال: ابن بطوطة وابن ماجد وماركو بولو وكذلك الذين داروا حول العالم في سفن شراعية مثل ماجلان وفاسكوداجاما وكولومبس وساروا في محيطات مجهولة وصحــارٍ مهلكة بلا طعام ولا خرائط ولا مرشدين فاكتشفوا القارات والطرق وحددوا المسارات للسفن.. أما اليوم فقد تطورت وسائل المواصلات وغدا العالم متصلا بعضه مع بعض فما كان يقطعه الأقدمون في عام أصبح المسافر في هذا العصر يجتازه في بضع ساعات.. ولذا أصبح السفر متعة ووسيلة مريحة لأنه وفر على الناس كثيرا من المتاعب والجهد والمال والوقت..

لقد تطورت وسائل المواصلات وأصبح السفر متعة ووسيلة مريحة لأنه وفر على الناس كثيراً من المتاعب والجهد والمال والوقت فأصبح المرء يجد فائدة في الرحلات ومتعة في التجوال والاطلاع على ما لدى الأمم الأخرى من حسنات ومزايا ومعارف وآثار في أيام معدودة بل وساعات محدودة، فبإمكان المرء اليوم أن يغادر الرياض صباحا و يصل إلى لندن ظهرا و يواصل رحلته إلى الصين أو أمريكا.. ولذا ينبغي أن نستفيد من الرحلات والتعرف على البلدان ومعرفة الشعوب والأقوام ومقوماتها الحضارية وملاحقة ركب الحضارة والحياة المتجددة وألوان المعرفة المختلفة.

فالعبرة أن نستفيد من الرحلات كل في مجال تخصصه سواء كان أديبا أو مؤرخا أو جغرافيا أو صحفيا أو عالما أو رجل أعمال وإدارة.. فللرحلات أهمية كبيرة في اكتساب الخبرات واقتباس المعارف واقتناص الفوائد في شتى المجالات الثقافية والصناعية والزراعية والعلمية والاجتماعية إلى غير ذلك مما ينبغي للرحالة أو السائح أن يعني به ويحرص عليه، وقد يجد فيه لذة ومتعة ورضى وابتهاجا وسخطا وأسفا في بعض المواقف والأحيان، والرحلات بطبيعتها سبيل من سبل المعرفة ومعين ثر للفائدة والاطلاع على عجائب هذا الكون ومشاهدة الأماكن ورؤيا المناظر وكما قال أبو تمام:

كأن به شوقا إلى كل جانب
من الأرض أو ضغنا على كل جانب

ولكم أثار هذا البيت اهتمام الدكتور طه حسين حيث يقول: لا أعرف بيتا تتسع آفاقه وتبعد آماده ويجمع الأرض كلها في كلمات معدودة مثل هذا البيت.

إن الرحالة يتعرض لحالات كثيرة وهذا شيء طبيعي كتقلب المناخ وصدمات البرد ولفح الحر وإلى مواجهة الأمطار والعواصف والرعد وإلى التعرض للثلج والجليد وسهر الليل والضياع وما إلى ذلك من صراع الحياة الطويل، فالرحلات ثروة عظيمة ومصادر للمعرفة. وفي الأمثال: من يعش ير كثيرا، ومن يمش ير أكثر. فالرحلات سبيل من سبل المعرفة.

وللأسف قليلون هم أولئك الذين يستفيدون من الرحلات بحيث يجسدون مشاهداتهم ويرصدون معلوماتهم ويدونون انطباعاتهم ثم يتبعون ذلك بالبحث والدراسة مما يتفق مع تخصصهم وميولهم، وأخيرا فمعذرة للقارىء الكريم إذا جاءت هذه الخواطر غير متكاملة فهي مجرد مشاهد عابرة وطرف من ذكريات محاولا من خلالها التعريف بتلك البلدان التي أتيح لي زيارتها والوقوف على واقعها.

المؤلف

الرياض في ١٠/٧/١٤٠٠ هـ



وصايا للمسافرين

أوصى حكيم عربي صديقا له أراد سفرا فقال:

إنك تدخل بلدا لا تعرفه.. ولا يعرفك أهله فتمسك بوصيتي تكتب لك السلامة، عليك بحسن الشمائل.. فإنها تدل على الحرية، ونقاء الأطراف فإنه يشهد بكرم المنبت والمحتد، ونظافة البزة فإنها تنبيء عن النشوء في النغمة، وطيب الرائحة فإنها تظهر المروءة، والأدب الجميل فإنه يكسب المحبة، وليكن عقلك دون دينك وقولك دون فعلك ولباسك دون قدرك، والزم الحياء والالفة فإنك إن استحيت من الفضاضة اجتنبت الخساسة، وإن أنفت من الغلبة لم يتقدمك نظير في مرتبة.

وأوصت اعرابية ابنها في سفر فقالت:

يا بني، إنك تجاور الغرباء، وترحل عن الأصدقاء ولعلك لا تلقى غير الأعداء، فخالط الناس بجميل البشر واتق الله في العلانية والسر.

و يقول الشاعر:

يزين الغريب إذا ما اغترب
ثلاث فمنهن حسن الأدب
وثانية حسن أخلاقه
وثالثة اجتناب الريب





في الخليج العربي

منذ مدة وأنا ارتقب الفرصة لزيارة الخليج العربي إذ هو جزء من جزيرة العرب. مهد العرب ومهبط الوحي ومنطلق الإسلام ومبوأ الفصحى وموطن الشعر والفكر، وكم للشعراء والأدباء في ذلك من رصيد جم وقول رصين و بيان مشرق وذكر عريض ومجد أثيل فألفوا في ذلك نظما ونثراً، وكانت حفاوة العلماء والباحثين والمحققين كبيرة جدا حيث كانوا يقطعون الفيافي ويجتازون المفاوز و يتعرضون للمتاهات ووعثاء السفر، ولا غرو فجزيرة العرب واسعة الأ رجاء وتزيد مساحتها على ثلا ثة ملايين كيلو.

وفي يوم السبت الموافق ١٣٩٧/٤/١٢ هـ وجدتها فرصة لتحقيق بغيتي فذهبت مبتدئا بزيارة الكويت، وفي الصباح فارقنا مطار مدينة الرياض على متن إحدى الطائرات السعودية التي كانت تسير بنا بين شعاب نجد وأوديته وجباله وقممه الشاهقة ورياضه الجميلة مرددا قول أبى الطيب المتنبى:

إذا مضى علم منها بدا علم
وإن مضى علم منه بدا علم

ولكم توحي تلك المناظر بتاريخ عريق وما تزخر به من ذكريات ومجد وخطوب وتاريخ خالد، وكانت الشمس في أوج إشراقها والسماء صافية الأديم تشرق على الهضاب والواحات والقرى والمراعي الخضراء والرمال والنخيل . الرمز الشامخ للجزيرة والخزامى والشيح والقيصوم والسدر والأ ثل الأقحوان وغير ذلك مما كان يأخذ مكانا بارزا في روايات المؤرخين وفي قصائد الشعراء وأساطير الرواة وأخبار القصاص وأحاديث الرواة، تفتقت على ذلك قرائح الشعراء العرب في جاهليتهم وتفجرت ملكاتهم وزخرت مواهبهم فتركوا تراثا وعطاء هو أسمى ما وصل إليه شعرنا وأدبنا.

وما أكثر ما قال الشعراء في تلك المرابع يقول الشريف الرضي:

شممت بنجد شيحة هاجرية
فأمطرتها دمعي وأفرشتها خدي

و يقول آخر :

سقى الله نجدا من ربيع وصيف
وماذا ترجى من ربيع سقى نجدا

وكنت أرنو لتلك الأودية والشعاب ومشاهدة تلك الهضبات مستعرضا أقوال الشعراء كقولهم :

تمتع من ذرى هضبات نجد
فإنك موشك ألا تراها

وكقول أحد الشعراء :

يشتاق قلبي إلى نجد و يطربه
نسيم نجد إذا ما هب خفاقا
وأسأل البرق أحيانا فيطربني
عنهم بما يملأ الأحشاء إحراقا
إن أومض البرق نجديا بعثت له
سحا من الدمع مدرارا ومهراقا

وكقول الأمير عبدالقادر الجزائري :

وأسأل عن نجد وفيه مخيمي
وأطلب روض الرقمتين ونعمانا

وكقول ابن خلدون :

يا أهل نجد وما نجد وساكنها
حسنا سوى جنة الفردوس والعين
أعندكم أن ما قد مر ذكركمو
الا انتشيت كان الراح تثنيني
أصبو إلى البرق من أنحاء أرضكمو
شوقا ولولا كمو ما كان يضنيني

وما أكثر ما قال الشعراء في ذلك، فهذه نفحات يسيرة مما قيل من أشعار في نجد وأوديته وقراه ومضاربه ورياضه ــ تنفست بها قرائح الشعراء وأتوا فيها بما يعجب و يطرب كامرىء القيس وطرفة وزهير وعنترة والحارث بن حلزة وأوس بن حجر وجرير والفرزدق وغيرهم كثير.

وكان بجواري على المقعد أحد الشيوخ وتجاذبنا أطراف الحديث حول الأسفار فحكى لي قصصا حول سفره على قوافل الإبل إلى الكويت ودبي ورأس الخيمة، وما مر به من المتاعب والمشقة.. سير متواصل في النهار واختفاء عن أعين اللصوص وقطاع الطرق في الليل، وفيما كنا نتحدث عن تلك الأيام إذا بالمضيف يطلب منا التهيؤ والاستعداد للهبوط في مطار الكويت والتفت لصاحبي وقلت له: إن الطريق ساعة واحدة بدلا من ثلاثين ليلة «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» وكما ترى الأمن شامل والزاد متوفر في الأرض والجو. وهبطنا في المطار حيث كان النسيم يداعب خد الكويت رطبا نديا منعشا، وبكل بشاشة من قبل المسؤولين في المطار انتهت إجراءات الدخول وتوجهت صوب أحد الفنادق في مدينة الكويت وحملت أمتعتي إلى حجرة من حجراته وأخذت غفوة صغيرة نهضت بعدها وخرجت أتجول في أسواقها. مدينة جميلة تبدو في زينة من مبانيها الشاهقة وتخطيطها البديع وشوارعها الواسعة وميادينها الفسيحة، ولبثت بها عدة أيام أتعرف على حاضرها وأتلمس مناظر قديمها واستمع لقصص من ماضيها.

ولكم حدثني والدي وأعمامي عن حياتها القديمة حيث عاشوا فيها فترة من الزمن وكانت لهم لطائف وذكريات، وتلفتت عيناي على تلك الأماكن والأحياء القديمة ومداخلها فوجدت يد التطور والنهضة قد امتدت إليها وحل محلها أحياء حديثة.

أمضيت في الكويت عدة أيام تمكنت خلالها من زيارة جامعة الكويت ومجموعة من المدارس الثانوية والابتدائية والمعاهد الخاصة ومتحف الكويت وبرجها الرفيع، كما قمت بزيارة للجهراء ولمينائي الكويت والأحمدي كما قمت بجولة في أحيائها مثل السالمية.. حولي المرقاب.. الرميثية.. الصليبخات.. خيطان.. المرقاب.. الفحيحيل.. الشويخ.. وغيرها من الأحياء والأسواق العامة والمتنزهات.

وفي الكويت نهضة علمية وثقافية، ويصدر العديد من الصحف والمجلات منها اليومي والأسبوعي والشهري، وقمت بجولة في مكتبات الكويت وذلك بهدف التعرف على مؤسسات الثقافة والنشر.

وفي الكويت التقيت بالعديد من رجالها وعلمائها الأفاضل وبسعادة سفيرنا والملحق التعليمي وغيرهم من الإخوان السعوديين ممن استوطنوا الكويت فوجدنا منهم كل حفاوة ومحبة وتقدير.

ثم توجهت صوب البحرين وكان يسمى «أوال» قديما، فوصلناه ليلا واوينا إلى أحد الفنادق في المنامة في شارع واسع وعلى شاطىء البحر، وكانت تتناثر في خيالي ذكريات الماضي الخالدة عن هذه الجزيرة التي تمتد في التاريخ إلى أقدم العصور.

وفي الصباح خرجت لزيارة المسؤولين في وزارة التربية والتعليم وزيارة نماذج من المدارس المتوسطة والثانوية والابتدائية، وفي العصر خرجت لمشاهدة أسواق المدينة وسرنا في شارعها الكبير، وفي العشية خرجت مع بعض الإخوان الذين حضروا لزيارتنا في الفندق فجلنا على شاطىء البحر ورأينا البحرين تتلألأ، ثم ذهبنا لتناول طعام العشاء لدى أحد الإخوان إجابة لدعوته ونعمنا لديه بلقاء الكثير من الإخوان السعوديين، من رجال الأعمال والمدرسين السعوديين وعدت إلى الفندق مشيا على الأقدام ولكم تذكرت ما مرت به البحرين من تاريخ طويل عريض يشد الاهتمام.

عصف الدهر بهم فانقرضوا
وكذاك الدهر حال بعد حال

وفي صبيحة اليوم الثاني نظمت لنا وزارة التربية والتعليم رحلة إلى بعض جزر البحرين ثم قمنا بزيارة للمحرق والرفاع و بعض البساتين المجاورة والعوالي حيث تقوم أكبر مصافي النفط.

ثم زيارة لمصنع الألمونيوم، وانتقلنا بعد ذلك إلى المدرسة الفندقية ثم إلى المتحف لنرى آثار البحرين ولنشاهد عصورا من التاريخ و بدائع من التراث والفنون آثارا ومناظر تحكي زمنا طويلا طوى في هذا المتحف الواسع الكبير.

كل حي على المنية غـــاد
تتوالى الركاب والموت حـــاد
ذهب الأولون قرنا فقرنا
لم يدم حاضر ولم يبق بـــاد
هل ترى منهم وتسمع عنهم
غير باقي مآثر وأيـــادي

ومن البحرين غزا المسلمون وانطلقوا إلى بلاد فارس وفتحوا كثيرا من تلك البلاد بقيادة العلاء بن الحضرمي ورفاقه من أولئك الأسلاف الجحاجحة العظام الذين نشروا الإسلام فكانوا نورا أومض في الظلام وعزما واصلوا به الجهاد، ثبتوا به قدم الحضارة الاسلامية في تلك الأراضي التي اكتسبت شخصية الإسلام الروحية والثقافية والعلمية.

وفي الصباح الباكر برحت البحرين متوجها إلى قطر وكانت أشعة الشمس تموج مع البحر وتضفي على مياه الخليج روعة وجمالا وتداعب أمواجه الهادئة، ووصلنا الدوحة بعد نصف ساعة من الطيران و بعد إنهاء الإجراءات في المطار أويت إلى فندق الخليج.. وهو اسم عربي جميل ولبثت في الدوحة ثلاثة أيام ولقيت خلالها من إخواننا القطريين كل حفاوة وتكريم.

ولقد كرم الإخوان في وزارة التربية والتعليم بوضع برنامج حافل بالزيارات ابتدأ بزيارة كلية التربية و بعض المدارس الثانو ية والمتوسطة والابتدائية، ثم توجهنا في رفقة بعض الإخوان نبغي زيارة بعض العلماء والمشايخ فوجدنا البعض وكان آخرون في حضور مؤتمرات خارج البلاد.

وفي اليوم الثالث سرنا لمشاهدة المتحف القطري وهو يمثل تاريخ قطر قديما وحديثا و به آثار كثيرة و بنادق وآلات حر بية ومناظر لبعض معالم قطر وشيوخها وأمرائها وأزيائهم القديمة إلى جانب بعض الخرائط المجسمة لصناعة الزيت

ثم بعد ذلك قمت بزيارة لمكتبة قطر وقد حدثنا المسؤولون عنها بعد التجوال فيها عن تاريخها وعدد الكتب الموجودة فيها وأقسام المحفوظات والتحقيق والمخطوطات الموجودة بها وغادرت المكتبة شاكرا حفاوتهم واهتمامهم بالكتاب، فخير جليس في الزمان كتاب.

ومن الدوحة توجهت إلى مسقط على متن طيران الخليج، وقد غادرنا الدوحة في تمام الساعة الحادية عشرة مساء ووصلنا إلى مسقط بعد منتصف الليل، وخلال الرحلة طاف بي الخيال وحلق في أجواء التاريخ فذكرت من أعلام عمان الخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض وصاحب كتاب العين وابن دريد صاحب كتاب الجمهرة والشاعر المشهور وأبا العباس المبرد صاحب كتاب الكامل. ولقد كانت تسمى قديما بمزون كما ورد في قول الشاعر العماني:

إن كسرى سمى عمان مزونا
ومزون يا صاح خير بلاد
بلدة ذات مزرع ونخيل
ومراع ومشرب غير صاد

وذكرت قول شاعرهم الذي وفد مع قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إليك رسول الله خبت مطيتي
تجوب الفيافي من عمان إلى العرج

وكان بجواري أحد الإخوان العمانيين، وكان على جانب من الخلق والأدب، فصرنا نتجاذب أطراف الحديث في التاريخ والأدب والشعر، وعلى حد قول الشاعر كثير عزة:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطي الأباطح
وشدت على دهم «البونج» رحالنا
ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

وروى لي قصصا عن عمان ومن ذلك ما روى أن رجلا من أهل عمان ذهب إلى المدينة فرآه عمر فقال: ممن أنت؟ فقال: من أهل عمان، فأدخله على أبي بكر فقال: هذا من أهل الأرض التي سمعت رسول الله يقول: «إني لأعلم أرضا يقال لهاعمان ينضح بناحيتها البحر لو أتاهم رسولي ما رموه بسهم ولا حجر».

وروى قصصا عن الوفود التي وفدت من عمان على رسول الله ودعائه لهم ولأرضهم وخطبة أبي بكر في أهل عمان وامارة عمرو بن العاص فيها، وقلت له: وماذا تعرف عن قول الجاحظ عن أهل عمان:لهما خطبتا العرب العجوز ووصف سيف أفيح وفضاء صحصح وخيل صلدح ورمل أصبح؟ وهكذا كنا في حوار علمي مفيد حتى هبطنا في مطار مسقط ثم أوينا إلى أحد فنادقها الواقعة في روي وهي مدينة حديثة جميلة، وخلال اقامتنا قمنا بزيارة للعديد من المدارس والمعالم الأثرية ولمدينة مسقط وهي مدينة قديمة تقع على الساحل الجنوبي لخليج عمان في مكان مرتفع على طول الشاطىء، كما كانت فرصة لزيارة الضواحي القريبة ومشاهدة البساتين والنخيل وبعض القلاع التاريخية، ولقد كرم القائم بأعمال السفارة السعودية فدعانا لحفل غداء دعا إليه طائفة من أهل الفضل والأدب والعلم والصحافة فكان لقاء ممتعا ومفيدا.

ثم توجهنا بعد ذلك صوب دبي ورأس الخيمة والشارقة وعجمان وأبوظبي وأمضينا بها بضعة أيام شاهدنا خلالهاما تحفل به من تطوير ونهضة وعمران ومناظر طبيعية وأماكن أثرية ومؤسسات ثقافية وعلمية ومكتبات عامرة، والاطلاع على تلك المدن والتجوال في ربوعها ومشاهدة معالمها.

حقا فمنذ حللت في ربوع الخليج لم أشعر أني اغتربت بل رأيت نفسي كأنى في بلدي وبين اخواني ولا غرو فنحن أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة وحضارة متماثلة وعادات متقاربة.

وهذا ذخر يجب أن يصان ويحافظ عليه وإن الكتابة عن الخليج وشرق الجزيرة يحتاج إلى كتاب مستقل فقد بلغت هذه الربوع أوجها في الماضي كما تثبت ذلك الدراسات الأثرية والتاريخية والجغرافية وقد خلد ذكرها في أقوال الشعراء والأدباء والعلماء ووصفها المؤرخون بأنها كانت ذات حضارة وازدهار ورقي، وزيارة هذا الجزء الغالي خيال يداعب كل من قرأ التاريخ وسمع عن تطوره المعاصر وسأحاول مستقبلا أن أفرد لذلك كتابا مستقلا عن تاريخ شرق الجزيرة بإذن الله ويتضمن الماضي العريق ومشاهد الحاضر المجيد.



في البصرة

في صبيحة يوم الاثنين الموافق ١٣٨٧/١٢/١ هـ غادرت مدينة الكويت متوجهاً صوب البصرة والزبير والأهواز وعبدان وسارت بنا السيارة مسافة ثلاث ساعات يدفعنا الشوق إلى البصرة ذات التاريخ المجيد والذكريات الخالدة وإحدى أمهات العراق الشهيرة الذكر، ووصلنا البصرة وتوجهنا للنزول في أحد الفنادق الواقعة في قلب المدينة، والبصرة اليوم مدينة واسعة وبها نشاط تجاري وتقع على شط العرب وبها ميناء حديث حيث ترسو السفن، ومن شط العرب تخرج أنهار كثيرة تجري في وسط المدينة وتنساب في شوارعها التي تطل عليها المنازل.

ولقد قمت بجولة في مختلف أحياء المدينة القديمة والحديثة.. ولكم تذكرت وأنا أسير في طرقاتها وبين ميادينها وشوارعها أولئك العلماء الأفذاذ من علمآء النحو واللغة والأدب والنقد والبلاغة، تذكرت الجاحظ إمام البيان الذي أثرى اللغة العربية بروائع بيانه وغيره من العلماء. إن البصرة تمثل تاريخا عريقا ومجدا إسلاميا رفيعا حيث كان يجتمع الشعراء في رحابها من أمثال جرير والفرزدق وغيرهما من شعراء وعلماء العصر الأموي وفي العصر العباسي ازدادت ازدهارا وتألقا وصارت عاصمة للعلوم والآداب ومدرسة تخرج منها العلماء الأفذاذ من أساطين النحو والبلاغة من أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه والأصمعي والجاحظ وبشار وإخوان الصفا وغيرهم — ومن أجمل ما يشاهده المرء في البصرة كثرة بساتينها ونخيلها وأشجارها ولا غرو فهي بلد النخيل ويقال إن بها أكثر من سبعة ملايين نخلة، ويروى عن الرشيد الخليفة العباسي قوله: إن ما على وجه الأرض من ذهب وفضة لا يبلغ ثمن نخل البصرة.

وخلال بقائنا في البصرة زارنا في الفندق إخوان أفاضل من أهالي الزبير ودعونا لزيارتهم وذهبنا معهم للزبير وهي على مقربة من البصرة في حدود ١٠ كم وقد سميت باسم الزبير ابن العوام أحد الصحابة قتل بعد موقعة الجمل ودفن بها، ومعظم سكان الزبير من أهل نجد واغلبهم من سدير وهم أهل نشاط تجاري وزراعي، وبها دفن عدد من التابعين من أمثال محمد ابن سيرين والحسن البصري والصحابي أنس بن مالك، ولكم تحدث ابن بطوطة عن هذه المدينة وآثارها ووصف مساجدها مما زادني شوقا لمعرفة تلك الآثار التي تحدث عنها، ولقد سألت الكثير من أهلها فوجدت أنهم يجهلون تلك المعالم وبالفعل فقد اندثرت وامّحت.

ولقد وجدنا من أهلها كل حفاوة ومكارم أخلاق واهتمام بالضيف وقيام بحقه ولا يحس المرء بينهم أنه غريب بل كأنه في وطنه وبين أهله وعشيرته، وما أكثر ما تحدث الشعراء والأدباء

في وصف البصرة ونخيلها وشطها قال الجاحظ يعد عجائب البصرة : منها أن عدد المد والجزر في جميع الدهر شيء واحد فيقبل عند حاجتهم إليه و يرتد عند استغنائهم عنه ، ثم لا يبطيء عنها إلا بقدر هضمها واستمرائها وحمامها واستراحتها لا يقتلها عطشا ولا غرقا يجيء على حسب معلوم وتدبير منظوم وحد ثابت وعادة قائمة ، يزيدها القمر في امتلائه كما يزيدها في نقصانه فلا يخفى على أهل الغلات متى يتخلفون ومتى يذهبون و يرجعون بعد أن يوفوا موضع القمر وكم مضى من الشهر، فهي آية وأعجوبة ومفخرة وأحدوثة لا يخافون المحل ولا يخشون القحط .

و يقول الفرزدق :

لولا أبو مالك المرجو نائله
ما كانت البصرة الرعناء لي وطنا

و يقول ابن لنكك الشاعر البصري :

نحن بالبصرة في لو
ن من العيش ظريف
نحن ما هبت شمال
بين جنات وريف
فإذا هبت جنوب
فكأنا في كنيف

قال ابن بطوطة :

«وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وايناس للغريب وقيام بحقه» ومن البصرة توجهنا إلى عبادان والتي يقول فيها الشاعر:

من مبلغ أندلسا انني
حللت عبادان أقصى الثرى
أوحش ما أبصرت لكنني
قصدت فيها ذكرى في الورى
الخبز فيها يتهادونه
وشربة الماء بها تشترى .

ومنها توجهنا صوب الأهواز وشيراز حيث نعمنا بمشاهدة المناظر الخلابة والبساتين المونقة والأنهار المتدفقة العذبة ولتلك المدن تاريخ حافل وذكر بعيد.

في الشام

قرأت عن الشام كثيرا وما يحفل به من المعالم والآثار وعن دمشق المدينة التاريخية القديمة وعاصمة الأمم الغابرة، وفي صيف عام ١٣٨٠ هـ رأيتها فرصة سانحة لزيارة بلاد الشام وأعني ببلاد الشام المعنى الواسع والحدود القديمة لبنان وسوريا والأردن وفلسطين، والتي مرت بأحقاب تاريخية قبل الفتح العربي الإسلامي فقد حكمها البابليون والآشوريون والفرس والرومان والبطالسة والسلوقيون حتى امتدت إليها يد العرب فترة من الزمن ثم استولى عليها الرومان ثم استردها العرب المسلمون بعد وقعة اليرموك الشهيرة، ولم تزل موضع اهتمامهم حتى صارت تحت الحكم الأموي وصارت دمشق عاصمة الأمويين في عام ٤١ هـ ثم تعرضت للحكم التركي والفرنسي ثم عادت عربية تتمتع باستقلالها.

وكانت بداية الرحلة أن نتوجه لدمشق الفيحاء من الرياض بطريق الجو ووصلنا دمشق بعد أن مكثنا أكثر من ساعتين في الطائرة، ولقد كنت خلال تلك الساعتين أرسم خيالات شتى عن بلاد الشام وعن الجامع الأموي وعن قصورها ومتاحفها ومعارضها ومدنها ومصايفها وروابيها ومساجدها ومعاهدها، وعن ابن تيمية وصلاح الدين وابن القيم وعصورها الذهبية التي مرت بها والفتوحات الإسلامية وماكتبه مؤرخوها كابن عساكر وغير ذلك مما قرأته وسمعته مما يملأ النفس إعجابا ـ ولقد كان منظر دمشق من الجو رائعا حيث كانت الجبال والوهاد حللا من الخضرة والنضرة مما يدخل على النفس البهجة والغبطة.

ووصلنا دمشق واتجهنا لأحد فنادقها في قلب العاصمة.. وعندما حضرت للغرفة وجدت ورقة ملصقة على الباب مكتوبا عليها: أجرة **الغرفة**، الفطور والغداء والعشاء على **حسابك**، الفندق غير مسؤول عن ضياع أي شيء من غرفتك، لا تنس مفتاح الغرفة، فسألت عن هذه التنبيهات فلابد أن لها معنى فأخبروني بما ينبغي أن أحتاط له، وبعد أن أديت صلاة العصر خرجت للنزهة والاستجمام وأنا أترنم بأبيات حسان بن ثابت التي مطلعها:

لله در عصابـــة نادمتـــــهم
يوما بجلق في الزمان الأول

وأعدت إلى الذاكرة أبيات حسان بن نمير:

و يا بردى لا زال ماؤك باردا
وماء الحيا من ساحتيك نمير

وفيما كنت محتارا لا أدري إلى أين أذهب وإذا بأحد الإخوة السعوديين ينادي على اسمي فالتفت نحو مصدر الصوت وإذا به أحد الأصدقاء الأفاضل فسعدت بلقائه حيث أخبرني بأن له شهرا ونيفا هنا فقلت له: إذاً أنت دليل ممتاز فذهبنا للنزهة والاستجمام بين أحيائها كحي المهاجرين وأبى رمانة وسوق الحميدية وشارع بغداد وحي الربوة، وفي الأ يام الأخرى قمت بزيارة آثارها كالجامع الأموي ودار الآثار وقصر العظم والمكتبة الظاهرية والجامعة والمتحف الوطني.

لقد حرصت على التردد على الجامع الأموي وتأدية فروض الصلاة فيه،والواقع أنه آية من آيات الجمال والفن الرفيع ودليل على ما لأسلافنا من مجد ورقي وتقدم في التصميم والفن المعماري.. إن جامع بني أمية يحكي تاريخا عظيما حيث كان الخليفة يصدر أوامره من هذا الجامع فتأتمر به الدنيا، فقد كان مكانه قديما معبدا لليونانيين والرومانيين حتى بناه الوليد ابن عبدالملك والذي بلغت الفتوحات الإسلامية في عهده ذروتها وأتم بناءه عام ٩٧هـ و يقول المؤرخون إن بناءه استمر عشر سنوات، ولهذا الجامع مدخلان رئيسيان وأرض المسجد كلها مفروشة بالمرمر، ولقد روي عن ياقوت الحموى قوله: إن من عجائب هذا المسجد أنه لو عاش الإنسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه ما لم يره في سائر الأ يام من حسن الصناعة واختلافها.

و بعد مضي عدة أيام من التجوال في داخل مدينة دمشق دعانا أحد الإخوان لنزهة خارج دمشق فذهبنا لكل من عين الفيجة و بقين و بلودان، ومررنا بالكثير من الجداول والأنهار والشلالات تنساب مياهها بين المروج والأشجار، فكان لمنظر المياه وهديرها وتدفقها الأثر الجميل في نفوسنا حيث أمضينا يوما ممتعا وجميلا وكنت أردد قول شوقي:

سلام من صبا بردى أرق
ودمع لا يكفكف يا دمشق
فتحت جنانك الأنهار تجري
وملء رباك أوراق وورق

وقوله :

آمنت بالله واستثنيت جنته
دمشق روح وجنات وريحان

قال الرفاق وقد هبت خمائلها

الأرض دار لها الفيحاء بستان

جرى وصفق يلقانا بها بردى

كما تلقاك دون الخلد رضوان

دخلتها وحواشيها زمردة

والشمس فوق لجين الماء عقيان

والحور في دمر أو حول هامتها

حور كواشف عن ساق وولدان

وربوة الوادِ في جلباب راقصة

الساق كاسية والنحر عريان

وقد صفا بردى للريح فابتردت

لدى ستور حواشيهن أفنان

خلفت لبنان جنات النعيم وما

نبئت أن طريق الخلد لبنان

حتى انحدرت إلى الفيحاء وارفة

فيها الندى و بها طي وشيبان

إن بردى النهر الجميل تتفرع منه أنهار دمشق و يضفي عليها جمالا وجلالا إذ يمر بشوارعها وميادينها حتى يصب في الغوطة وهي التي يعنيها الشعراء في قصائدهم ومن ذلك قول الشاعر:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها

فلي بجنوب الغوطتين شجون

وما ذقت طعم الماء إلا استخفني

إلى بردى والنيرين حنين

و بعد العودة إلى دمشق كان في انتظارنا في الفندق أحد الإخوان السعوديين المقيمين في دمشق حيث كنا على موعد معه وقد حضر لاصطحابنا إلى منزله فوجدناه قد دعا عددا كبيرا من أبناء الجالية السعودية فسعدنا بلقائهم والتعرف عليهم وقد أكدوا علينا بضرورة الاستجابة لدعواتهم فاعتذرنا لهم بحجة أن وقتنا قصير وسوف نغادر دمشق قريبا.

وفي اليوم التالي ذهبنا للسفارة السعودية للسلام على بعض الإخوان فيها ولقد سألت عن بعض العلماء والأدباء فقيل لي إن أكثرهم موجود في الجامع الأموي وأفضل وقت للقاء بهم بعد صلاتي العصر والمغرب، و بالفعل وجدنا مجموعة طيبة من العلماء والمحققين يلقون دروسهم

وسط مجموعات من طلاب العلم. وخرجنا من الجامع إلى جبل قاسيون لمشاهدة دمشق كلها من عل حيث كانت غارقة في الخضرة والنور والجمال وتتأنق بالزينة وتتألق بالجمال وتزدهي بالنضارة، وودعنا دمشق متوجهين إلى لبنان بطريق السيارات حيث مررنا بالكثير من المصايف. ولقد أضفى الجمال عليها حللا من الخضرة والنضرة والزهور يتمثل حقيقة فيما قاله شعراء العرب في الربيع كابن الرومي والبحتري وابن خفاجة، فأينما تدر بصرك لا تجد إلا رياضا وشجرا وزهورا ولا غرو إذا فتن شعراء لبنان في وصف لبنان وجمال ربيعه وحقوله، فالجمال يلهم القرائح الخلاقة شعرا تمتزج النفس فيه بالخيال والحقيقة، وبعد أن وصلنا بيروت توجهنا لأحد فنادقها في رأس بيروت وكان الجو معتدلا وجميلا وبعد أن استقر بنا المقام قمنا بجولات في مختلف أحياء بيروت قديمها وحديثها ومتاحفها وآثارها ومساجدها ومكتباتها.. ولقد حفل تاريخ لبنان بذكريات مديدة منذ قديم الزمان وتصارعت عليه أمم شتى منذ عهد الإغريق والآراميين والفينيقيين والبابليين والآشوريين. فهي عبارة عن تاريخ ضخم حيث مرت عليه أمم ودول وحضارات ومدنيات وعلوم وثقافات، وللبنان تاريخ في عهد الخلافة الأموية والعباسية والدويلات التي تلتها كما أن موقعه الممتاز أعطاه اهتماما دوليا كما أن طبيعة أرضه الجبلية وقربه من البحر وكونه في مركز متوسط في البلدان التي كانت مهدا لمختلف الحضارات كل ذلك جعل له دورا وأثرا في تكوين دوره التاريخي.

ويتميز لبنان بجباله فهي ميزته الجغرافية بل هي عامل حيوي في حياته ولذا فهو يستهوي ويجذب إليه الكثير من السائحين كما يمتاز بمغاراته وكهوفه وأنهاره.

ويقول المتنبى :

وعقاب لبنان وكيف بقطعها
وهو الشتاء وصيفهن شتاء

وكثيرا ما تحدث اللبنانيون عن الأرز ونظموا القصائد الطوال في ذلك وصار من المعالم السياحية، وكم قرأنا من أشعار وقصائد وكتب حول شجرة الأرز، وجودة أخشابها وطيب رائحتها، وكانت فرصة طيبة أن نذهب لتمضية يوم في الأرز ومشاهدة الثلوج ومنه ذهبنا لبشري، وزرنا بيت أديبها الريحاني وهي تشرف على وادي قاديشيا.. والواقع أن شجرة الأرز شجرة جميلة كما أنها صلبة ولا غرو إذا استعمله الأقدمون وصنعوا منه مراكبهم وسفنهم.

ولقد قمت برحلات متتالية لجباله ومصايفه والتي تمتاز بالنسيم العليل والمناظر الخلابة والمناخ الجميل والمياه الباردة العذبة، ومن أشهر المغارات مغارة جعيتا وفاديشيا والتي تتفجر منها المياه.

ومن أشهر المصايف:

عالية، بحمدون، صوفر، حمانا ـ ظهور الشوير، سوق الغرب، برمانا، زحله، خلده، فالوغا، بكفيا، كيفون، نبع الصفا، نبع الباروك، شتورة إلى غير ذلك من القرى والمصايف المنتشرة على سفوح الجبال وقد حباها الله بالخضرة والنضرة والجمال.

ولقد أمضيت يوما كاملا على ضفاف نهر البردوني في رحلة ممتعة والذي جلس فيه أمير الشعراء شوقي حيث يقول من قصيدة طويلة:

يا جارة الوادي طربت وعادني
ما يشبه الأحلام من ذكراك

إلى أن يقول:

مرآك مرآه وعينك عينه
لم يا زحيلة لا يكون أباك

وذهبنا لعاصمة الشمال طرابلس ذات التاريخ المديد حيث كانت عاصمة لأمم كثيرة وقد كانت تشتهر بوجود المكتبات العلمية فيها وحينما كانت عاصمة لبني عمار كان بها مكتبة تحتوي على مائة ألف مجلد حيث كان ابن عمار حريصا على جمع الكتب وتوفيرها ولكن الافرنج خربوها، ثم جاءها الفاطميون وغيرهم وهي الآن المدينة الثانية في لبنان وبها نشاط اقتصادي وازدهار صناعي، وحركة تجارية واسعة.

ومن الشمال قصدنا الجنوب صور وصيدا وجبيل وغيرها من المدن والقرى وهي بلدان ذات شهرة تاريخية وبها قلاع تاريخية قديمة وآثار تحكي عهد الأمم الغابرة.. أما بعلبك فقد أمضينا في ربوعها وبين قلعتها يوما تجولنا فيه بين آثارها التي تمثل المعابد الرومانية القديمة ذات التصميم القوي والإبداع الهندسي.. وحينما كنت أتجول في أسواقها تذكرت القائد البطل المسلم صلاح الدين فقد تربى فيها حيث كان والده عليها واليا، كما أنها أنجبت العديد من الشعراء والأدباء والعلماء.

إن لبنان بلدتجارة وسياحة وهما أسباب ازدهاره وغناه وليس فيه موارد طبيعية غنية ولكن السياحة والموقع الاستراتيجي ومهارة أهله في ممارسة أساليب الخدمات العامة جعلته يرتفع إلى هذا المستوى..

زرت الكثير من المكتبات في لبنان والتقيت بمجموعة طيبة من الشعراء والأدباء ممن لهم

نشاط ومشاركات علمية وأدبية، وكنت حريصا على أن تتاح لي الفرصة للقاء مع كبار الأدباء والمفكرين ممن نقرأ نتاجهم ونسمع بأسمائهم اللامعة في الحياة الفكرية ونتابع انتاجهم وأبديت رغبتي لأحد أصحاب المكتبات فأبدى استعداده حيث إن له صلات عديدة وصداقة وطيدة بحكم اشتغاله بالنشر والكتاب، ولقد حرصت على أن يكون لقائي مع من لهم اهتمام بالأدب العربي وخدمة التراث والثقافة الإسلامية ولقد وجدت منهم كل رحابة صدر وتواضع حيث جرى الحديث عن الأدب العربي والشعر العربي والتجديد قديما وحديثا، واندفاع الكثير من الأدباء والشعراء مع تيار الحياة المادية ورواج الصحف والمجلات والكتب التي تبعد عن واقع الأدب والثقافة الموضوعية الجادة وتراجع الأدب الهادف وهزيمته، ولقد سمعت ما أثلج صدري وملأ نفسي تطلعا من أن هناك حرصا على إنهاض الأدب ورفع مستواه و يوجد في بيروت متحف أثري ومكتبة عامة.

الصحافة في لبنان :

يشتهر لبنان بكثرة صحفه ومجلاته مما يسترعي الانتباه وقليل هي الصحف الجادة الملتزمة ومع ذلك فهناك مجلات علمية وأدبية وفكرية وتربوية ويمارس الكتابة فيها كتاب مبرزون وأدباء مجيدون ممن لهم قدم راسخة في ميدان العلم والأدب، ونأمل أن تتمكن هذه المجلات وغيرها في العالم العربي من الارتفاع بمستوى الأدب والمعرفة ليبلغ أوج الإبداع والعطاء والخلود.

ومن لبنان توجهنا إلى عمان حيث ذهبنا في الصباح إلى مطار بيروت للسفر إلى الأردن على متن إحدى طائرات الخطوط الجوية اللبنانية، وكانت اجراءات الركوب والسفر في غاية من اليسر والسهولة وركبنا طائرة البوينج ولم يكن يبلغ عدد ركاب الطائرة إلا أقل من نصف مقاعدها، وقد قدموا لنا طعام افطار في الطائرة وكنت طوال الرحلة في حديث مع أحد الركاب الأردنيين وهو من رجال التربية والتعليم، حيث تجاذبنا الحديث عن الأساليب التربوية الحديثة والتطورات المعاصرة في حقل التعليم حتى نزلنا في مطار عمان، وبعد أن أنهينا الإجراءات المعتادة ركبنا سيارة أجرة من المطار إلى أحد فنادق عمان وكان قائد السيارة على جانب من دماثة الخلق فأخذ يشرح لنا كل ما نمر به من الأماكن والميادين وغيرها، وبعد أن وصلنا الفندق وجدناه في غاية النظافة فشكرنا للسائق خلقه الكريم وبعد الاستراحة في الفندق خرجنا في جولة حول الفندق وتناول طعام الغداء في أحد المطاعم القريبة ثم فوجئنا بنزول وابل من المطر فكانت السحب الكثيفة تجلل السماء والبرق يلمع والرعد يكاد يصم الآذان، وعدنا لفندقنا مسرعين فلم نتمكن من الخروج فبقينا بين الغرفة وقاعة الفندق نطالع الصحف والمجلات ونتناول الشاي والقهوة.

وفي اليوم الثاني ذهبنا مبكرين للسفارة السعودية للتحية والسلام وتسجيل الجواز فلقينا منهم

كل حفاوة واحترام، وبعد أن أمضينا في عمان عدة أيام زرنا خلالها الكثير من المعالم والآثار والمكتبات ودور العلم والمعرفة، توجهنا صوب القدس لأداء صلاة الجمعة في المسجد الأقصى ثالث المساجد، وقد مررنا بالعديد من القرى والبلدان ووصلنا القدس وتوجهنا للمسجد الأقصى أولى القبلتين والمسجد الذي يشد إليه المسلمون رحالهم من جميع بقاع الأرض وقد أسرى الله بنبيه محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومنه إلى السماء، ومشينا على أقدامنا بين وسط طرقات مدينة القدس القديمة وبعد أن اجتزنا سوق المدينة وصلنا المسجد ولقد امتلأت نفسي روعة وجلالا وعبرة وتأملا وقد كانت الأبواب مليئة بالناس من رجال ونساء وأطفال قدموا من مختلف المدن والقرى المجاورة فكان الزحام شديدا في المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ودلفنا إلى المسجد وأدينا صلاة الجمعة مع الجموع الكبيرة التي امتلأت بها ساحة المسجد فكان مشهدا عظيما رائعا، وبعد الصلاة وقفت أتلفت إلى هذه الوجوه الخاشعة في مختلف أرجاء المسجد ثم قمت متجولا أجيل الطرف في أرجائه وأشاهد قبته وأبنيته المحيطة به كما شاهدت من خلال نوافذه مدينة القدس الجديدة كما يسمونها والألم يعصر القلب ثم أخذت أتنقل بين جنبات الحرم واتجهت إلى الصخرة وكانت مليئة بالناس وقد وصفها المؤرخ المقدسي بقوله:

«لم أر في الإسلام ولا سمعت أن في الشرق مثل هذه القبة» ولقد شاهدت قبة بجوارها تسمى «قبة المعراج» ونزلنا إلى المكان المحيط بصحن القبة ثم خرجنا لمشاهدة أسوار الحرم من الداخل والخارج وهي مجموعة أربطة لطلاب العلم والمدرسين بالمسجد وبجوارها متحف بداخله بعض الآثار وانتهى بنا التجوال مع مختلف الآثار حتى عدنا إلى المسجد لأداء صلاة العصر فلما انتهت الصلاة قمت لمشاهدة المنبر ومشاهدة ما يمتاز به من جمال الشكل ومتأملا ما مر عليه من أمم وقرون وحوادث وعصور متعاقبة، ولقد قال ياقوت في وصفه: وأما الأقصى فهو في طرفها الشرقي أساسه من عمل داود عليه السلام وهو طويل عريض وطوله أكثر من عرضه وهو على غاية الحسن والاحكام وطوله ألف ذراع وعرضه سبعمائة وفي سقفه من الخشب أربعة آلاف خشبة وسبعمائة عمود رخام وله ستة وعشرون بابا الخ، وما أكثر ما كتب المؤرخون في هذا المسجد ووصفه الرحالة في كتبهم، ولبثت في القدس يوما وليلة زرت خلالها الكثير من المعالم والآثار والأبنية التي شادها صلاح الدين وخلفاؤه وذهب بنا الدليل الذي كان يرشدنا إلى كنيسة القيامة وهي كنيسة أثرية قديمة وسمعنا من المرشد أقوالا شتى عن تاريخها وعن المسيح، وفي زاوية منها مكان يسمونه المذبح وتركنا القدس حيث غدونا إلى البحر الميت وماؤه ملح جدا وبقينا على شاطئه بضع ساعات نتأمل أرض فلسطين وتاريخها الحافل المجيد وذكرياتها التاريخية وما مر بها من جيوش وأمم وحروب مازالت باقية في صحائف التاريخ والذكريات أعاد الله فلسطين عربية مسلمة.

وذهبنا بعد ذلك إلى نابلس ورام الله والبيرة والخليل، واخترنا رام الله للاستقرار والمبيت بها حيث بلغ منا التعب مبلغه وهي مدينة جميلة وهادئة و باردة وقد ذهبنا لتناول طعام العشاء في أحد مطاعمها ثم غدونا نسير في طرقها وشوارعها حتى أدركنا التعب وذهبنا للفندق، وفي الصباح ودعنا تلك الربوع الجميلة إلى عمان ومنها إلى دمشق فحلب بلد سيف الدولة الحمداني والتي يقول الشاعر فيها:

كلما رجت بنا الروض قلنا   حلب قصــدنا وأنت السبيل

وفي حلب شاهدنا معالم كثيرة كقلعة حلب التي تقع على ربوة عالية يحيط بها خندق كان يملأ بالماء قديما كما توجد بها نقوش وكتابات ترجع إلى العهود القديمة، كما يوجد بالقلعة سرداب مظلم يقول المرشد إنه كان سجنا، وفيها مسجد إلى غير ذلك من المشاهد كالجامع الكبير والمكتبة الوطنية التي تحوي نفائس الكتب.. وفي اليوم الثاني قمنا برحلات إلى كل من حمص وهي مدينة زراعية ولها تاريخ مجيد و بها دفن خالد بن الوليد وابنه عبدالرحمن، وعلى نهر العاصي بقينا فترة من الوقت وشاهدنا الماء يتدفق من طواحينها و يقول الشاعر:

ومـن حـسنها في روضة سندسية
تـعلق في أطراف أذيالها العاصي

ثم قصدنا حماة ومعرة النعمان والتي يرقد بها شيخ المعرة ثم عدنا إلى دمشق الفيحاء والتي يقول شوقي فيها:

لـولا دمـشـق لمـا كـانت طليطلة
ولا زهـت بـبـني العباس بغداد

وكما قال الشاعر:

سقى الله ما تحوي دمشق وحياها
فـما أطيب اللذات فيها وأهناها
نـزلـنـا بـهـا واسـتوقفتنا محاسن
يحـن إلـيـهـا كـل قلب و يهواها

ومنها غادرنا بلاد الشام ونفوسنا مفعمة بتلك المشاهد وأفكارنا مليئة بالذكريات..

* * *

في تركيا

راودتني فكرة القيام برحلة استطلاعية إلى تركيا[1] البلد المسلم والذي قرأت وسمعت عنه الشيء الكثير وعلى رأي المثل القائل: (ليس راء كمن سمع) فأزمعت السفر إليها واستحسنت أن تكون بطريق البر ليتسنى لي رؤية مختلف المعالم الأثرية والتاريخية والسياحية. والتمتع بالمناظر الطبيعية من سهول وهضاب وجبال وأودية والاطلاع عن كثب على العادات والتقاليد والمدن الأثرية، وكان خط الرحلة: بيروت. طرابلس. اللاذقية. انطاكية. الاسكندرونة. أضنة، أنقرة، استانبول. و بعد أن مضيت فترة في ربوع لبنان وتجولت بين روابيه الخضر وشاطئه البديع وهضابه وتلاله وجبله الأشم وما أودع الله فيه من جمال وروعة حيث المياه العذبة والمغارات الرائعة والنسيم العليل والشمس الدافئة والشلالات الهادئة في نبع الصفا والشاغور وغيرهما مما دفعني إلى تذكر أبيات شاعر العروبة الكبير معروف الرصافي وترديدها وأنا أتنقل بين أوديته ومرابعه ورياضه وأرزه الخالد حيث قال في لبنان:

أرى الحسن في لبنان أينع غرسه
وقارب حتى أمكن الكف لمسه
لقد لبس الجو اللطيف فزانه
فلان بكف العيش منه مجسه
ففي الليل لم يزعجك برد نسيمه
وفي الظهر لم تلفحك بالحر شمسه
كأن النسيم الطلق بين جنانه
غناء حبيب يطرب النفس جرسه
جرى الماء في واديهما متدفقا
بأنشودة الاطراب تنطق خرسه
وان تزر الشاغور يوما تجدبه
من الحسن ماقد خص بالفضل جنسه

وكم في هذا القول من موسيقى عذبة وتصوير رائع يعكس معالم الطبيعة ومفاتن جمالها...

---

(١) كانت الرحلة عام ١٣٨٤هـ.

تشغل تركيا كما هو معروف مكانا استراتيجيا يمتاز بأهميته الدولية و بالنسبة لموقعها فجزء منها في آسيا وآخر في أوربا فهي بمثابة الجسر الذي يصل آسيا بأوربا.

وقد كانت أراضيها سابقا مجال نزاع وميدان خصومة ومكان نزال بين الفرس واليونان وموئل الصراع والقتال بين المسلمين والروم في العصور الوسطى وقد استوطنها في السابق عدد كبير من اليونانيين والبيزنطيين وغيرهما من الأمم السابقة...

واستوطنها الأتراك العثمانيون في القرن الرابع عشر الميلادي. ويحد تركيا من الغرب اليونان ومن الشرق ايران ومن الشمال البحر الأسود ومن الجنوب العراق وسوريا. و يقدر عدد سكانها بحوالي ثلاثين مليون نسمة معظمهم يعمل في الزراعة إلى جانب ممارسة الآخرين من السكان للأعمال التجارية والصناعية.

* * *

ولنعد إلى برنامج الرحلة فقد وصلنا الحدود التركية و بعد الانتهاء من الاجراءات التي كانت تتسم بالسرعة وعدم التعقيد وصلنا إلى مدينة (أنطاكية) وهي مدينة تاريخية مشهورة وتجولنا في شوارعها وميادينها وأماكنها الأثرية، وأغلب سكانها يتحدثون اللغة العربية بطلاقة وقضينا في ربوعها ليلة هادئة جميلة تذكرت خلالها الشاعر العبقري أبا الطيب المتنبى حين هجر حلب وقت اشتداد الصراع فيها بين الإخشيديين والحمدانيين وجاء إلى هذه البلدة ليقيم في ربوعها و يعيش في جنباتها ويمدح سراتها واضطرته الظروف إلى مدح من لا يريد مدحه ولقد ورد له شعر كثير في هذه البلدة ومن ذلك قصيدته التي مدح فيها الأمير المغيث بن على العجلي والتي مطلعها:

دمع جرى فقضى في الربع ما وجبا
لأهله و شفى أنّي ولا كربا

إلى أن يقول:

لما أقمت بانطاكية اختلفت
إليّ بالخبر الركبان في حلبا
فسرت نحوك لا ألوي على أحد
أحث راحلتي الفقر والأدبا

ولقد مرت به في هذه البلدة ظروف عصيبة كانت حاجته فيها شديدة وملحة مما اضطره كما يروي إلى دينار علي بن منصور الحاجب الذي منحه إياه مقابل قصيدته الشهيرة والمعروفة برقة ألفاظها وجمال نسيبها ومطلعها:

بأبي الشموس الجانحات غوار با
اللابسات من الحرير جلابيا
الملهبات قلوبنا ــ وعقولنا
وجناتهن الناهبات الناهبـا
الناعمـات القاتـلات المحييـا
ت المبديات من الدلال غرائبا

إلى أن يقول :

كيف الرجاء من الخطوب تخلصا
من بعد ما أنشبن فيَّ ، مخالبا
أضنتني الدنيا فلما جئتها
مستسقيا مطرت علي مصائبا
حال متى علم ابن منصور بها
جاء الزمان إليَّ فيها تائبا ..

* * *

ثم بارحنا إلى مدينة آضنة وهي مدينة أثرية قضينا في رحابها يوما وليلة، بين تجوال في ميادينها ، وزيارة لمعالمها السياحية واستأنفنا السير بعدها إلى مدينة أنقرة العاصمة التركية عن طريق جبل (طوروس) الشهير حيث المنعطفات والجبال المرتفعة و يوجد في الطريق عدة أماكن للاستراحة مجهزة بما يحتاجه السائح من المأكولات والمشروبات، وبعد المرور بمئات القرى والمزارع وصلنا مدينة أنقرة.

ودعنا أضنة :

.. ومع اطلالة الفجر وندى الصباح ودعنا «أضنة» : البلدة الوادعة الجميلة ذات المباني القديمة واستأنفنا السير صوب العاصمة: أنقرة. وكان الطريق طو يلا إذ يزيد على ٦٠٠ **كيلو** متر وسرنا عبر جبال «طوروس» الشهيرة ذات المنعطفات والمنعرجات والصعود والهبوط ، وكنا نمر بعشرات القرى الجميلة المنتشرة هنا وهناك ولكن كانت الرحلة بين أضنة وأنقرة طو يلة جدا ، ولكن جمال الطبيعة ومناظر الأشجار والأعشاب حيث الغابات ملتفة الأشجار من كل ناحية وحيث الأنهار الصغيرة ذات الجداول المتفرعة وكذا المقاهي العديدة المزدهرة بما لذ وطاب ثم هذه «الاستراحات» الواقعة على جوانب الطريق يوجد بها كل ما يطلبه المسافر من المأكولات

والمشروبات.

ولقد توقفنا ونحن نمضي في الطريق عدة مرات رغبة في الاستمتاع بجمال الطبيعة وروعة المناظر الخلابة وظلت هذه الأشجار تعطينا رائحة عبقة ونكهة ممتازة، وكلما اختفت قرية ظهرت، على التو، قرية أخرى.. وهكذا دواليك حتى شارفنا العاصمة أنقرة والواقع أن طول الطريق جعل الملل والسأم يتسللان إلى نفوسنا. وحينما ظهرت لنا أنقرة حمدنا الله على سلامة الوصول وتوجهنا صوب فندق «أمبريال» السياحي. وبعد أن أخذنا قسطا كافيا من الراحة والنشاط عرجنا للتجول في شوارع المدينة حيث أرتال السيارات وجموع الناس تمتلىء بها الشوارع.

أنقرة :

ولقد وجدت أنقرة مدينة جميلة متطورة، حافلة بكل شيء يظهر عليها التصميم الحديث فشوارعها ممتدة واسعة، وميادينها ضخمة وحدائقها منتشرة.. وقد قمنا بزيارات استطلاعية لمختلف معالم أنقرة، ورأينا ضريح أتاتورك: «مصطفى كمال» وهو ضريح ضخم وأمامه قاعدة كبيرة محلاة بالذهب و بجواره تماثيل أسود. ولقد زين بمختلف أنواع الأحجار المنقوشة والملونة.

هذا وصف عيان مجرد لمشاهدتنا للضريح المذكور.

ومن ثم قمنا بزيارة لحديقة الحيوانات، حيث شاهدنا مختلف الأنواع فيها، ورأينا مجموعات من السائحين وهم يتجولون في جنباتها و يداعبون بعض الحيوانات.

سد أنقرة :

و بعد زيارات متتابعة لمختلف المعالم والأسواق في المدينة آثرت أن نخرج لنمضي وقتا ممتعا في سد أنقرة وهو سد تحيط به الجبال من جميع الجهات، وقد أمضينا فيه أصيلا جميلا، واستأجرنا زورقا بخاريا كان يمخر بنا عبابه بين مياهه العذبة الصافية، ونسماته العليلة. وشعرنا بجو شاعري جميل، فهنا الاستراحات المنظمة وهنا يتوافر كل ما يطلبه المرء من طعام وشراب.

وكم بهرنا منظر هذا السد وما يجثم على حفافيه من مناظر ساحرة ومشاهد بديعة، تعبق بالأريج والعطر والجمال.

و بعد أن أمضينا في ربوع مدينة «أنقرة» العاصمة الحديثة ثلاثة أيام. أزمعنا الرحيل صوب مدينة «اسطنبول» ذات المجد والتاريخ الحافل.. وطلبنا من صاحب الفندق أن يرشدنا إلى فندق نقيم فيه هناك. فلقد كان رجلا لطيفا أغرقنا في بحر من الاحترام والتقدير كلما رآنا. حيث كان يحفظ بعض الكلمات العربية وخاصة ما يتصل بعبارات التأهيل والترحيب ولعله حذق تلك العبارات من كثرة نزلائه من السياح العرب وكثرة معاشرته لهم. وكنا نتلقى منه هذه

التحيات ونردها بالشكر والامتنان.

ومع اشراقة الفجر، انطلقنا نعبر الطريق الممتد وننعم بالمناظر الرائعة حيث الأزهار والأشجار والحقول الممتدة مرددين مع الشاعر العربي قوله:

كست الطبيعة وجه أرضك سندسا
وحبت نسيمك إذ تضوع طيبا
بسط تظللها الغصون فأينما
يممت خلت سرادقا منصوبا

وبعد قطع مسافة من الطريق آثرنا أن نرتاح قليلا في تلك الاستراحات الموجودة بكثرة على جنبات الطريق واحتسينا القهوة التركية التي يعملونها بجودة ودقة.. وتناولنا بعض الفواكه المختلفة المذاق والألوان. ثم واصلنا السير. وكنا نزداد شغفا بما نشاهده من جميل المناظر، من قرى، وبساتين، وغابات.. ومما يشيع في النفس المسرة والابتهاج..

وبينما الشمس تجنح للغروب أخذت تقرب منا اسطنبول وتدنو معالمها، ومآذنها وقبابها الماثلة في قلبها تلوح لنا وتنطلق منها دعوة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وهو أمر يملأ العيون بهجة، والنفوس حبورا.. إذ لم تستطع الأيام الطوال وما صاحبها من خطوب وما رافقها من أحداث ونوائب على هذه المدينة أن تطمس تلك الآثار..

ووصلنا اسطنبول عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك وبعد أن مررنا باسطنبول القديمة.. تابعنا السير نحو القسم الأوروبي بواسطة البواخر البحرية التي تتسع لعشرات السيارات. واتجهنا إلى فندق «ديرو بالاس» السياحي وما كدنا نبلغه حتى أخذنا في استراحة نتخفف فيها من عناء السفر وثقله بعد احتساء أكواب الشاي والقهوة.. ولعل الطريف في هذا الفندق أن الغرفة التي كانت من نصيبي تطل على شارع يحفل بالهدير والزئير بعكس أحد زملائي الذي كان ينعم بالمنظر الرائع وينبسط البحر أمامه.. ثم تبين لي أنه أكثر تجربة وممارسة مني في عملية الاختيار لكثرة استضافته للفنادق وتردده عليها.

وفي الصباح الباكر قمنا بزيارات استطلاعية لمعالم المدينة وآثارها وهي مدينة لها روعة وجاذبية.. كما أن الميادين التي تقع في قلبها.. شديدة الزحام والحركة. فهي مدينة مترامية الأطراف، دائبة النشاط ليلا ونهارا.

وقمنا بزيارة لمتحف اسطنبول الحافل بمختلف الآثار والذخائر مما جمعه السلاطين وحرصوا على اقتنائه والمحافظة عليه، وكذا بعض المكتبات كالمكتبة السليمانية الحافلة بروائع التراث

الإسلامي[1]

ومما يبعث على الفخر والاعتزاز كثرة الجوامع والمساجد في مدينة اسطنبول، ولعل من أشهرها جامع السلطان أحمد، ومسجد «أيا صوفيا» الذي يزدحم بكثرة منتجعيه من السياح الأوربيين. وكذا مسجد السليمانية ومسجد بايزيد، ورستم باشا، وغير ذلك مما هو كثير. ولقد قمنا بجولة في قصر «ضولما بخشه» الفخم. وقصر «يلدز» ولقد بهرنا ما رأيناه فيهما من روعة ومجد و بهاء مما يجسد تاريخا يحكي قصة تلك الأيام السوالف..

وكم فيه للأبصار من متنزه
تنال به نفس الحليم الأمانيا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا
به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة قد جللته بحليها
من الوشي تنسى السابري اليمانيا

وذهبنا لشاطىء البوسفور حيث أمضينا وقتا جميلا على جنباته. وكم تغنى الشعراء العرب به كالرصافي وغيره ممن كان يستهويهم تمضية الأمسيات بجواره..

ولعل من أشهر أسواق اسطنبول: «بي اغلو» وهو شارع فخم جميل يزدان بالمعارض والمتاجر والتنسيق الجميل. وكذا سوق «كابالي شرشي». ثم قمنا برحلة إلى جزر السلاطين كجزيرة «بيوك ادا» في بحر مرمرة بواسطة بواخر بحرية سياحية. ولقد كان لذيذا جدا ذلك اليوم الذي أمضيناه في رحابها حيث المياه المعدنية الدافئة والبرك الممتازة والمعدة للاستحمام والبساتين والخمائل والمناظر التي ينطبق عليها قول الشاعر الأندلسي ابن سهل.

الأرض قد كسيت رداء أخضرا
والطل ينثر في رباها جوهرا

وكل ما في هذه الجزيرة محبب إلى النفس حيث الهدوء والفن والجمال فلا جلبة ولا ضوضاء.

وفي يوم آخر قمنا برحلة إلى شواطىء «كايولس البحرية» على شاطىء البحر الأسود شمالي اسطنبول على بعد (٢٥) كم بوساطة البواخر السياحية. ولقد كان الضباب يجلل الجو مما زاده روعة، وجمالا، و بهاء.

---

(١) يقول الدكتور صلاح الدين المنجد في محاضرة ألقاها في بيروت: ان تركية هي أعظم مركز للمخطوطات العربية اذ ان في اسطنبول والأناضول ما يقارب ربع مليون مخطوطة عربية.

وهكذا بعد أن أمضينا أياما حافلة بالمتعة والانطباعات الحلوة الباسمة ودعنا تركيا ونحن أكثر ما نكون شوقا لها مرددين مع الشاعر العربي قوله:

بنفسي تلك الأرض ماأجمل الربى
وما أحسن المصطاف والمتربعا



في مصر

بعد رحلة من الرياض دامت ساعتين وصلنا القاهرة([1]) والتي وصفها عبدالرحمن بن خلدون بأنها مدينة المدن.. وحينما استقر بي المقام في رحابها كانت ذاكرتي تمتلىء بالانطباعات الجمة عن تاريخ مصر ومعالمها وآثارها ومتاحفها وعلمائها وأدبائها ونيلها وأهراماتها وحضارتها وما كان لها من ماض حضاري عريق.

والزائر للقاهرة تقع عيناه على أشياء كثيرة ومناظر متعددة ومعالم مختلفة ومن أراد التعمق والدراسة فسيجد بغيته في متحف الآثار المصرية وما يحفل به من آثار تمتلىء بها خزائنه. وكذا دار الآثار العربية وما تحويه من دقيق النقش والوشي والزخارف.

كان اسم القاهرة «الفسطاط» وقد أسسها عمرو بن العاص حيث أقام بها جامعه العتيق الذي كان ميدانا لحلقات العلم والدراسة والوعظ والإرشاد، وكم أسهب المؤرخون في وصف مدينة الفسطاط وشوارعها ومنازلها وحماماتها.

لقد وصف عمرو بن العاص مصر بأنها:تربة غبراء وشجرة خضراء يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات يجري بالزيادة والنقصان.

إن القاهرة اليوم مدينة كبيرة واسعة الأرجاء ممتدة الأطراف ونمت نموا سريعا، ولقد حرصت على زيارة معالمها وآثارها فقمت بزيارة الجامع الأزهر ولقد كان هذا الجامع من أوائل الأعمال التي أقامها الفاطميون في مصر، وزاد في بنائه كثير من الخلفاء ومايزال يحتفظ بنقوش وكتابات.

لقد أسهم الأزهر إسهاما فعالا في الحفاظ على اللغة العربية والثقافة الإسلامية وصيانة الدين الحنيف ونال شهرة واسعة ومركزا مرموقا في العالم العربي والإسلامي، وخرجت من الجامع لزيارة الجامعة الأزهرية حيث التقيت بعدد من الأساتذة والعلماء ممن تربطني بهم صلة العلم فقد التقيت خلال تجوالي بين الكليات بمجموعة من أساتذتي أولئك العلماء الأفاضل، وبعد أن جلست بين قاعاته وكلياته خرجت لزيارة القلعة التي اختارها البطل صلاح الدين لتكون مقرا له وسكنا واستمر الحكام من بعده حتى عصر الخديوي اسماعيل حينما نقل مقر الحكم إلى مقر عابدين ولقد طرأت على مباني القلعة تغييرات واضافات، وبعد ذلك قمت بزيارة لأحياء القاهرة القديمة التي تحتفظ بطابعها التقليدي ومازال أكثرهايحتفظ باسمه القديم. وصعدت

---

(١) كانت الرحلة في عام ١٣٩٠هـ.

للقلعة التي كان قد أمر ببنائها السلطان صلاح الدين الأ يو بي على أحد منحدرات المقطم .

وخلال إقامتي بالقاهرة قمت بزيارات لكل من دار الكتب ودار الآثار العربية والمتحف المصري وجامعة الدول العربية، والأهرام، وحديقة الحيوانات وقصر محمد على والمتحف الإسلامي، والمتحف الحربي بالقلعة، وجامعة القاهرة ومكتبتها ومجمع اللغة العربية و يضم بين جنباته مجموعة من أعلام اللغة العربية والأدباء البارزين، ويحرص المجمع على تنقية اللغة العربية و ينشر ذخائرها، ووضع معاجم لغو ية.. ومن اللافت للنظر كثرة المكتبات المنبثة في أحياء القاهرة إلى جانب المجلات الثقافية المتخصصة في مختلف مجالات الآداب والفنون. ويحظى الكتاب بأهمية المؤسسات الثقافية ودور النشر ولذا فهي تقدم مئات الكتب ذات المستو يات المختلفة التي تشد حاجات المتخصصين والقراء العاديين في شتى نواحي الفكر والثقافة والعلوم.

وقمت بجولة في أحياء القاهرة وأسواقها الشهيرة بالتحف ذات التشكيلات والفن المتألق من حفر على الخشب والعاج والعظم وغير ذلك من الصناعات الدقيقة المتنوعة، ولعل من أبرز ملامح وجه القاهرة برجها العالي وقبابها ومآذنها ومبنى تلفازها ونيلها الجاري الجميل الذي عاشت على ضفافه أمم وحضارات. والقاهرة تجمع بين القديم والحديث والذكريات التاريخية والآثار العريقة فالزائر لها سيشاهد كل يوم أشياء قديمة وحديثة وسيجد نفسه في حاجة إلى الوقت ليرى و يستطلع و يقرأ و يشاهد أماكنها ومعالمها التاريخية والأدبية وما أكثر العلماء والأدباء والمؤرخين الذين أثروا المكتبة العربية بما دونوه وكتبوه عنها وعن نهرها الخالد الذي يجري طو يلا و تنساب مياهه في أرض مصر، و يعتبر من أكبر الأنهار التي تجري في القارة الافريقية وتعتمد عليه مصر في تحقيق الكثير من الموارد الزراعية والاقتصادية، ومن القاهرة ذهبنا لزيارة الاسكندرية الثغر الجميل والتي أسسها الاسكندر الأكبر قديما وهي ذات تاريخ عريق حيث عاصرت التاريخ قرونا طو يلة، و بعد زيارة لأهم معالمها السياحية وامتاع الذهن والعين بما تحو يه من المناظر الرائعة والشاطىء الجميل والمكتبات الغنية بالكتب القديمة والحديث والمعاجم الموسوعية واصلت الرحلة إلى السو يس و بورسعيد ثم واصلت الرحلة حيث شاهدنا السفن تمر قادمة من أمريكا والشرق الأقصى إلى الأقصر وأسوان حيث الآثار التاريخية.



في السودان

في صباح يوم الأحد الموافق ١٣٩٥/٤/٢٠ هـ حطت بنا الطائرة في مطار الخرطوم بعد رحلة استغرقت ساعة من جدة، ولقد حرمنا الطيران في الليل من الاستمتاع بجمال البحر الأحمر ومشاهدة موانئه، وبعد استراحة من عناء السفر والسير حيث أصيبت الطائرة بعطب أخر سفرها خمس ساعات.. توجهنا صوب العاصمة التي كانت في منتهى الهدوء إذ لم تستيقظ بعد واخترقنا شوارع العاصمة ذات الأشجار الكثيفة حتى وصلنا إلى فندق السودان.. ولعل مما يلفت النظر أن أغلب البيوت من طابق واحد مما أضفى على المدينة انفتاحا واتساعا وصفاء بعكس أغلب مدن اليوم الكبرى التي تعددت فيها ناطحات السحاب فحجبت الرؤية وتلوث جوها بالهواء الفاسد، وبعد استراحة في الفندق ودعنا مرافقنا المكلف من قبل وزارة التربية والتعليم باستقبالنا ومرافقتنا بعد أن ناولنا برنامج الزيارة وكان حافلا بزيارة مختلف المؤسسات التعليمية والثقافية، كما تجولنا في مناطق متعددة وزرنا مجموعة من المدارس والجامعة الإسلامية في أم درمان والمعهد الديني وحديقة الحيوان والمركز الإسلامي الإفريقي ومعهد تعليم اللغة العربية وبعض المكتبات، كما قمنا بجولة على المدن والقرى المجاورة للعاصمة.. كما قمنا بجولة على الخرطوم وأم درمان والوقوف على ضفة النيل ومشاهدة مياهه وكم يغري المرء السير في شارع النيل والتمتع بمنظر المياه التي أضفت على المكان روعة وجمالا وقد غرست الأشجار على جانبيه.

على مائدة السفارة:

كرم سعادة السفير السعودي فدعانا إلى حفلة وقد دعا إليها عددا من العلماء والأدباء والمشايخ في السودان بالإضافة إلى أعضاء السفارة السعودية والمكتب الثقافي، وكانت فرصة طيبة تبادلنا خلالها الأحاديث.. والمعلومات عن السودان قديما وحديثا.



رحلة على النيل

قامت وزارة التربية والتعليم هناك مشكورة بتنظيم رحلة نيلية جميلة ومشاهدة النيلين حيث يلتقي النيل الأزرق بالنيل الأبيض ويختلطان في روعة بالغة. وكان الجو ربيعيا جميلا. ولقد شاهدنا ونحن على ظهر المركب العاصمة السودانية المثلثة وهي تتكون من أم درمان والخرطوم والخرطوم بحري. ومدينة الخرطوم مدينة حديثة جميلة التخطيط بديعة التنسيق. ولقد أضفت الجسور المقامة على جوانبها روعة وجمالا.. وهذه الجسور جعلت من المدن الثلاث حيث يلتقي أطراف بعضها ببعض وكأنها مدينة واحدة.. ورغبة في تزجية الوقت كان الحديث عن هذه الثروة المائية الهائلة وعن الزراعة والماشية وامتداد الإسلام في القارة الافريقية وما يملكه السودان من ثروة زراعية وحيوانية هائلة.

ولقد بقينا على ظهر المركب أكثر من أربع ساعات رغم سيره السريع.. ولقد راعتنا عظمة النيل واتساعه وضخامته وما يفيض به من مياه زاخرة هائلة، ولقد لفت نظري وأنا أرنو ببصري يمينا و يسارا على جوانب النيل قلة المزارع والبساتين على ضفاف النيل المتدفق بالمياه الغزيرة وسألت الإخوة السودانيين الذين كانوا معنا في هذه الرحلة النيلية قائلا: علام الأرض عارية من الخضرة بينما الماء كما نرى غزارة وعذوبة وامتدادا..؟ فقال محدثي: إن ذلك يعود إلى قلة الإمكانـــات إذ أن المال والخبرة مهمان جدا في عملية الاستثمار. وقال آخر: إن السودان يحوي أراضي خصبة لو استثمرت لكفت العالم العربي غذاء. فقلت: حمدا لله وشكرا الذي رزقنا هذه الموارد الطبيعية الهائلة... وبعد أربع ساعات أمضيناها على ظهر المركب وصلنا إلى جبل الأولياء وهو على شكل هضبة مرتفعة حيث توجد به خزانات المياه وتوجهنا إلى جامع البلدة لتأدية صلاة الجمعة.. ولقد غمرنا سكان الجبل ممن وجدناهم بالسلام والتحية وكانت الكلمات تخرج من شفاههم مليئة بالحب والمودة.

ويمتاز هذا الجبل بوجود الأشجار والظل الوارف واصطياد الأسماك فهو من متنزهات العاصمة حيث يقضي الناس فيه عطلتهم الأسبوعية...

ولقد لاحظت خلال التجوال على شاطىء النيل وجود عدد من الصيادين في زوارقهم يبيعون الأسماك الطازجة بأسعار زهيدة.. وبعد أن أمضينا وقتا بين قمة هذا الجبل وخزانات المياه وساحل النيل قفلنا راجعين إلى العاصمة..

ولكم يوحي النيل بالجمال فكم تغنى به الشعراء وأبدعوا في وصفه حيث ترك الشعراء قديما

وحديثا تراثا غزيرا من الشعر حول ذلك، ولكم تفنن شعراء مصر والسودان في وصف النيل فجاءت أشعارهم مفعمة بالرقة والعذوبة ومليئة بالجمال.. والجلال في وصف النيل ومرابعه.. ومباهجه.. لقد كان منظر النيل فاتنا.. أوحى إليّ باستعراض شريط من ذكريات المؤرخين والرحالة والشعراء.. وما أثار فيهم من عاطفة وإحساسات جمالية ولقد طوى الزمن تلك الذكريات في جوف أمواجه.. حقيقة إن منظر النيل ليولد في النفس إحساسا عميقا بالجمال كما أن هذا الإحساس يطلق العنان لخيالات الشعراء والأدباء والفنانين.

وفق الله إخواننا السودانيين و يسر لهم الإمكانات لاستغلال هذه المياه العذبة الوافرة والأمطار الغزيرة والأراضي الواسعة الخصبة فيما يعود بالخير والنفع والفائدة والرفاهية.



في المغرب العربي

تمهيد :

قبل الحديث عن أقطار المغرب العربي استعرض بإيجاز ظروف الاحتلال الفرنسي ، ففي سنة ١٨٣٠م استولى الفرنسيون على الجزائر وفي سنة ١٨٨١م فرضوا على تونس معاهدة الحماية وفي سنة ١٩١٢م فرضوا على المغرب الأقصى معاهدة الحماية ، ولاشك أن الظروف التي تم فيها هذا الاحتلال الفرنسي لأقطار المغرب واختلاف هذه الظروف كان له تأثير في الأسلوب الذي استعمله الفرنسيون في ممارسة استعمارهم . ولقد كان الاستعمار الفرنسي مدفوعا بشتى العوامل ففي سنة ١٨٣٠م حينما احتلت الجزائر كانت الدوافع متعددة اقتصادية واستراتيجية ودينية حيث كانوا يهدفون إلى تنصير الجزائريين فدخول الفرنسيين إلى المغرب العربي هو امتداد للروح الصليبية القديمة بل اعتبروه انتصارا صليبيا يغطي الهزائم القديمة كما فعلوا حينما دخلوا سوريا حيث وقف الجنرال «غورو» على قبر صلاح الدين الأيوبي قائلا : «ها نحن عدنا اليوم يا صلاح الدين» فالأمر ليس إلا انتقاما لهزيمة الصليبيين السابقة .

كما أن هزيمة فرنسا المعروفة أمام الألمان في سنة ١٨٧٠م أحس الفرنسيون بالخطر على وجودهم في أوربا وكما هو معروف أن الفرنسيين قليلو المواليد فكانوا يقولون و يتصورون أن المغرب العربي سيكون لهم منجى أمينا ، ولكن المقاومة الجزائرية كانت عنيفة بقيادة الأمير عبدالقادر الجزائري رغم تطبيق الفرنسيين أسلوب الأرض المحروقة ، والقضاء على كل مقومات الحياة ، ولكن قوة الإسلام التي اعتمد عليها الأمير عبدالقادر الجزائري ، هي التي أعطته القوة والصلابة ، وحرص الفرنسيون بكل قوتهم أن يقضوا على القوة المعنوية - أي الاسلام - بشتى الوسائل والسبل فحولوا المساجد إلى كنائس ، وحاولوا اجتثاث اللغة العربية فكل من ينطقها يقتل كنوع من الإرهاب وسعوا إلى فرنسة السكان إلى غير ذلك .. واحتفظ الجزائريون في قلوبهم بدينهم ولغتهم حتى حدث الانفجار في سنة ١٩٥٤م ، وحرصوا على أن يطبقوا نفس الأسلوب الذي كانوا يسعون من أجله في الجزائر كذلك في المغرب العربي وكانت المقاومة عنيفة ، ولعل في كفاح الأمير عبدالكريم الخطابي وغيره من أبناء المغرب خير دليل .

فالمقاومة المغربية والجزائرية والتونسية أحبطت مشاريع الاستعمار وبقيت تلك الأقطار والحمد لله عربية مسلمة فخورة بذلك، وبرز العديد من أبناء المغرب العربي في صفحة المجد الأصيل.. ولا غرو فهم من أمة أصيلة كما قال النابغة الجعدي.

بلغنا السماء مجدنا وعلاؤنا
وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرا

فكان فيهم العلماء والفقهاء ممن ملأوا الصحف والكتب بالروائع والذخائر والفنون وبقى أبناؤه يحافظون على اللغة العربية فأسهموا بصياغة الأدب الرفيع العذب المعين المتألق قديما وحديثا وأقول:

وليبق مغربنا على طول المدى
طودا رفيعا عاليا يتسامى

وأخيرا فإن المغرب العربي مازال والحمد لله وفيا لعروبته وإسلامه وما فتيء ينتسب إلى الحضارة العربية الإسلامية ويشعر أبناؤه بشعور إخوانهم في المشرق يغارون على لغتهم وتراثهم ويذودون عن حياض الإسلام..



في تونس

في صباح يوم الجمعة الموافق ١٠/ ١/ ١٤٠٠هـ غادرت مطار الرياض متوجها إلى تونس البلد العربي الإسلامي الشقيق وهبطنا في مطاري جدة وطرابلس وواصلنا السفر بعد ذلك إلى تونس، وكنت أشاهد من الجو الشواطىء الجميلة المترامية بين سهولها والمزارع الواسعة والمراعي الخضراء والغابات الكثيفة، ولاشك أن موقعها وسط حوض البحر الأبيض المتوسط أضفى عليها ذلك الجمال والمناخ الطيب والثروات الطبيعية والأثرية، فكم نشأت على شواطىء هذا البحر من مدنيات وحضارات وماض زاخر بالعطاء والإبداع فقد استوطنها الفينيقيون والرومان قبل الفتوحات الإسلامية.. ولقد كان بجواري في المقعد أحد الإخوان التونسيين فسألته عن تونس وعن جامع الزيتونة وجامع عقبة وغيرها من الأماكن الأثرية القديمة التي ارتفع عليها صرح اللغة العربية والثقافة الإسلامية في تونس فاسترسلنا في الحديث مرددا قول الشاعر العربي:

هات الحديث فإنني أصبو إلى
أنباء تونس من صميم القلب جدا

وقول القائل :

دريت حقا وما أدراك أني من
حر اشتياقي إلى الخضراء في ضجر
هناك ما شئت من علم ومن أدب
ومن حدائق تؤتي أطيب الثمر

فلقد استمر هذان الجامعان يخرجان للناس أكابر العلماء والفقهاء والمؤلفين كالإمام سحنون واللخمي وموسى بن عمران والمازري وغيرهم. وأخذت مع محدثي نتجاذب أطراف الحديث في التاريخ والأدب حتى قطع علينا الحديث صوت مضيف الطائرة منبئا بالاستعداد للهبوط وشاهدت المدينة من عل غارقة في الخضرة الغامرة وترصعها البيوت البيضاء المختلفة الأحجام والأشكال إلى جانب منظر البحر ثم هبطنا في مطار قرطاج.

وبعد الانتهاء من إجراءات المطار المعتادة توجهت صوب فندق البحيرة، وبعد الاستراحة وتأدية صلاة الظهر والعصر جمعا خرجت من الفندق أتجول في شوارع المدينة ووصلت في سيري إلى شوارعها الرئيسية كشارع الحبيب بورقيبة وشارع محمد الخامس وشارع

الحرية، وكان في جيبي خريطة المدينة وكانت كبيرة ومصورة مما سهل لي الانتقال والوصول إلى بعض الأماكن والميادين، وكان الطقس لطيفا يغري بالنزهة ولكنه في اليوم الثاني غائما ومنذرا بالمطر والبرد. وحينما كنت أتجول في المدينة أعجبتني متاجرها ومعروضاتها الحسنة التنسيق وشوارعها الفسيحة وعماراتها الشاهقة المتألقة بهندستها العربية الأندلسية ومقاهيها المتناثرة على الأرصفة، ومضيت متجولا في المدينة حتى وصلت إلى المدينة القديمة فسألت عن جامع الزيتونة ومشيت وسط دروب ضيقة وبيوت قديمة تحكي الماضي فذكرت قول الشاعر:

عينى ترى الماضي فتبكي له
يا ليت ماضينا هو الحاضر
كأنها أسطورة حية
يعجز عن تصديقها الناظر

وفي الطريق إلى الجامع توجد المتاجر التي تعج بمختلف أنواع البضائع والتحف والصناعات الأندلسية والتونسية، إلى جانب المكتبات التي تحفل بكتب التراث والثقافة المعاصرة إلى جانب البيوت الصغيرة المتراصة وسط دروب ضيقة وكلها مطلية بالدهان الأبيض فهي بيضاء ناصعة من الخارج.

ووصلت الجامع وله ستة أبواب وبه ٣٥٧ عمودا، ولكم قرأت عنه وسمعت حديث من زاروه ورأوا روعته بأعينهم وفيما كنت في الطريق إليه كان الخيال يزوق لي صورا شتى حتى وصلت إلى باب الجامع فأخذت صورة الخيال تتضاءل شيئا فشيئا ليحل محلها الواقع وبعد أن صليت مع جموع المصلين صلاة المغرب قمت بالتجول وسط الجامع، ويعتبر آية في الفن المعماري والزخرفة الإسلامية ومجهز بالثريات مما زاده نورا وتألقا حيث حلقات الدرس مما يذكر بماضيه حيث كان محط رجال طلاب العلم وخرج منه رجال يشار إليهم بالبنان في سعة العلم وتحقيق البحث وأخذ اسم هذا الجامع يتردد على الألسنة والآذان، ولقد بني هذا الجامع في سنة ١٤٤هـ وبناه حسان بن النعمان ثم جرت توسعته على يد الكثير من الخلفاء وقد كانت أرضيته التي أقيم عليها مملوءة بأشجار الزيتون، وفي أواخر أيام الحفصيين احتل الأسبان تونس ودخلوا الجامع بخيولهم ونهبوا الكتب وأحرقوها.

وخرجت من الجامع متجولا في حي القصبة وسط أسواقه الضيقة ويسمى بالحي العربي ولقد شاهدت مجموعة من السياح من شتى الأجناس يشترون مختلف الهدايا والتحف التونسية ولا غرو فتعتبر تونس من الأقطار السياحية الغنية بالآثار التاريخية ففيها يشاهد المرء نماذج من الحضارة الإسلامية والبيزنطية والفينيقية فضلا عن جمال الطبيعة واعتدال المناخ..

ثم قمت بزيارة للسفارة السعودية وللمكتب التعليمي السعودي ولقد سررت كثيرا بمشاهدة أفواج من الطلاب يرتادون مكتبته و يطالعون الكتب الموجودة فيه و يستفيدون من ذلك خلال كتابة بحوثهم، و بها عدد من الكتب والمؤلفات السعودية وقد أهديت لأمين المكتبة مجموعة من المؤلفات والكتب السعودية كما التقيت بالصديق الأستاذ/ محمد الرشيد الماجد وقد مكث في تونس سنوات عديدة وله صلات وصداقات بالكثير من العلماء والأدباء فأتاح لي فرصة اللقاء بعدد من العلماء والأدباء والمشتغلين بالتربية والتعليم فكانت لقاءات طيبة ذكرتني بأدباء تونس القدامى من أمثال المعز بن باديس والحسن بن رشيق والحصري وابن عبدون وعلى الحصري صاحب قصيدة:

يا ليل الصب متى غده
أقيام الساعة موعده

وإذا ألقينا نظرة على المكتبة التونسية وجدناها تحفل بكتب ومؤلفات في مختلف ميادين العلم والأدب والشعر مما يدل على نهضة أدبية واعية، كما أن الصحف والمجلات تجسد نشاطا أدبيا وتساير النهضة الحديثة شكلا وموضوعا.

كما قمت بزيارة للمتحف والمكتبة الوطنية و بوابات المدينة و بعض الآثار القديمة وخرجت للنزهة والاستجمام لضواحي العاصمة فوجدت مشاهد خلابة ومناظر طبيعية جميلة هادئة ومن تلك الضواحي:

حمام الأنف ــ سيدي أبو سعيد ــ حلق الوادي ــ الزهراء ــ رادس ــ المرسى قمرت وغيرها.

وكلها تطل على البحر و بها فنادق ومطاعم وشواطىء جميلة، وكان المطر ينزل خفيفا حينئذ والسماء متلبدة بالغيوم فمضينا وسط غابات رائعة من الأشجار، وتوجهت بعد ذلك لزيارة مدينة سوسة ذات الشواطىء الجميلة ومنها إلى القيروان وخلال الطريق كنت أردد قول شاعرها عبدالرحمن بن زياد وقد عزم على العودة إليها من بغداد حيث يقول:

ذكرت القيروان فهاج شوقي
وأين القيروان من العراق
مسيرة أشهر للعير نصا
وللخيل المضمرة العتاق
فبلغ أنعما و بنى أبيه
ومن يرجو لنا وله التلاقي

بأن الله قد خــــلى سبيلي

وجــــد بنا المســير إلى فــراق

وتبعد مدينة القيروان عن تونس ١٦٠ كيلو وعلى امتداد الطريق الخضرة والأشجار والمناظر الطبيعية الخلابة.

و بعد أن وصلت القيروان تذكرت تاريخ هذه المدينة حتى طارت شهرتها في كل مكان نظرا لما كان فيها من أئمة العلم والثقافة الإسلامية منذ الفتح للمغرب العربي، ولكم تتلمذ الكثير من أبنائها على الإمام مالك رحمه الله وسمعوا منه الحديث ورددوا عنه مذهبه في الفقه وكثر القاصدون إلى هذه المدينة والآخذون عن علمائها وأدبائها من أبناء الأندلس والمغرب وافريقية.. ومازال جامع عقبة بعد صلاة المغرب يموج بحلقات الدرس والعلم و يؤمه طلاب العلم من نواح مختلفة مما يذكر بماضي علماء هذه المدينة، ورغم ما مر بهذه المدينة من أحداث وغارات أجنبية فقد بقي أبناؤها محافظين على عقيدتهم ودينهم وتراثهم.

ومن جامع عقبة ذهبت إلى جامع أبي زمعة البلوي ثم إلى سور المدينة القديم وموضع آبار المدينة التي كانوا يجلبون الماء منها ثم طفت في أسواقها ومازالت على طابعها القديم وتمتلىء بالتحف والصناعات الأندلسية إلى جانب صناعة السجاد والغزل والنسيج، ولا غرو فأرض تونس الخضراء خصبة جدا حيث يزرع الزيتون بكميات كبيرة وكذلك الحبوب والفواكه والخضر.

ومدينة القيروان مدينة تاريخية تحتفظ بطابعها القديم و بتراثها العريق، وقد أسسها البطل العربي المسلم عقبة بن نافع رحمه الله، ولكم رددت وأنا أتجول في ربوعها و بين أحيائها قول شاعرها القديم:

فهل للقيروان وساكنيها ... عديل حين يفتخر الفخور

بلاد حشوها علم وحلم ... وإســلام ومــعــروف وخير

عراق الشام بغداد وهذي ... عراق الغرب بينهما كثير

بلاد خطها أصحاب بدر ... وتلك اختط ساحتها أمير

و بعد ذلك ودعت هذه المدينة الخالدة وأنا أحمل أنبل المشاعر الإسلامية الاخوية ورجعت للعاصمة ومنها ودعت تلك الربوع مرددا هذا القول:

فتؤنس تونس من زارها ... و يدركه أنسها حيث سار

في الجزائر

ندبت ضمن من ندب بعد استقلال الجزائر للإسهام في عملية التعريب وتدريس اللغة العربية وآدابها والتربية الإسلامية فلبيت النداء مغتبطا أن أكون مدرسا في تلك الربوع التي بقيت فترة طويلة ترزح تحت نير الاستعمار وغطرسته وحربه الضروس القاسية، وقد كانت أفئدة المسلمين جميعا تشارك الجزائر في محنتها وبلوائها وعسرها وشدتها وما اعتراها من آلام في ساحات الجهاد وميادين القتال مدة قرن ونصف، وقد كان دافعي أن أشارك إخواننا الذين حاربوا الاستعمار لتبقى الجزائر عربية مسلمة جهد طاقتي وسعة معرفتي بل رأيت ذلك واجبا لا مندوحة عنه فاستجبت لثقة المسؤولين ورحلت للجزائر في شهر رجب ١٣٨٤هـ مع نفر من الإخوان، وامتلأت نفوسنا حماسا لهذه المهمة ورغبة في تأدية هذا الواجب وغادرنا الوطن الحبيب فمررنا بالقاهرة وبنغازي وتونس حتى وصلنا مطار الجزائر وقدمنا لموظفي الجوازات الأوراق مكتوبة باللغةالعربية فقيل لنا لابد أن تكون مكتوبة باللغة الفرنسية فأخبرناهم بأننا لا نعرف الفرنسية ونحن قادمون إلى بلد عربي مسلم ضرب ـ أمثلة ـ في الكفاح للتخلص من الاستعمار ورفع لواء العربية وراية الإسلام وقد أعزكم الله بالنصر، وأخيرا أخذوا الأوراق وترجموها وكانت لغتهم العربية ركيكة وضعيفة ولعل هذا هو السبب في ذلك، وقد أبدوا أسفهم لذلك وكانوا على جانب من اللطف وحسن المجاملة، ثم توجهنا صوب مدينة الجزائر العاصمة وقد كنا أول بعثة عربية تصل إلى الجزائر من المشرق العربي بعد الاستقلال، وقد كان الحصول على فندق يضم أماكن لنا جميعا معادلة صعبة فما من فندق يممنا إليه وجوهنا إلا وجدناه قد علق على بابه لافتة تقول بالفرنسية مشغول بالكامل غير أنّا لم نيأس فحاولنا أن نطرق شتى الأبواب وانتهت المحاولات بالحصول على فندق اتسع لنا جميعا وهو ما كنا نتمناه.

ومدينة الجزائر مدينة كبيرة وتقع على شاطىء البحر الأبيض المتوسط وعلى تل جبلي يطل بهامته الشامخة على البحر مما أضفى على المدينة روعة إلى جانب الغابات المحيطة بها والأسواق تمتلىء بالحركة والنشاط حيث المعارض التجارية.. ولقد أفاض الكثير من المؤرخين عن التاريخ القديم للجزائر كابن بطوطة وابن خلدون الذي كتب مقدمته المعروفة في الجزائر في مدينة تلمسان عام ٧٧٩هـ، وحسبي أن أذكر طرفا مما شهدته فيها فمن أعظم أحيائها حي القصبة معقل المجاهدين فتذكرت خلال طوافي بين أرجائه جلادهم وصمودهم لطرد المستعمر عن ديارهم وتضحيتهم، والجامع الكبير الذي التقينا فيه بمجموعة من العلماء الذين

فرحوا بنا وقالوا نحن لا نعتبركم أجانب في بلادنا بل إخوان كرام فقلت: وما عددنا أنفسنا غرباء في هذه الديار الإسلامية، ولكم سررت حينما رأيت الجامع يموج بالمصلين ثم توجهنا بعد ذلك لزيارة السفارة السعودية ووزارة التربية والتعليم حيث التقينا بالمسؤولين فيها فوجدنا منهم كل ترحيب ومودة وسرور بمجيئنا للمشاركة في عملية التعريب واعتبروا ذلك تقديرا وشعورا أخويا رفيعا وعرضوا علينا العمل في عدة مدن فاخترنا وهران المدينة الثانية والثغر الباسم الجميل، فتوجهنا إلى هناك بواسطة القطار بين الوهاد والنجاد والمناظر الجميلة والمياه والأشجار حتى بلغنا وهران على شاطىء البحر، ولقد أنسانا التعب والمشقة تجدد المناظر ومرأى المزارع والأودية والبساتين وأشجار العنب والغابات على سفوح الجبال ومررنا بقرى ومدن كثيرة ورددت هذا البيت:

وردت وهران ملتاعا ومغتبطا
تطغى بنفسي آمال وأفكار

ولقد أمضيت في الجزائر عامين دراسيين أسعداني بالتعرف على الكثير من مدنها وآثارها ومعالمها وتاريخها وعلمائها ومخالطة الطلاب والأساتذة مخالطة اخوة ومودة وتقدير، وطوفت في الكثير من القرى والبلدان وما أحسسنا بالاغتراب ومازلت أحتفظ بذهني بالذكريات المتنوعة التي بقيت عالقة في النفس، ولله تلك الأيام وما تخللها من رحلات وجولات وجلسات على شاطىء البحر والبحيرات ووسط الأشجار والأعشاب، ورغم ما مر بهم من المحن والشدائد من قبل الاستعمار فمازالت الروح الإسلامية والأخلاق العربية الكريمة تغلب عليهم، وبعد فللجزائر من موقعها وثروتها وخيراتها ما يضمن لها المستقبل الكريم الزاهر وما أصدق قول الشاعر:

إذا أردت ملأت العين من بلد
مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسى السحاب على أجبالها فرقا
ويصبح النبت في صحرائها بددا

ولقد سعدت كثيرا حينما كنت أسير في شوارع الجزائر ووهران وتلمسان وعنابه وغيرها من البلدان فنرى الأسماء العربية الإسلامية وأسماء الشخصيات الجزائرية المجاهدة ممن كان لهم دور إيجابي في تاريخ الجزائر مثل عبدالحميد بن باديس والأمير عبدالقادر الجزائري والإبراهيمي وغيرهم، وهكذا زالت أسماء الاستعمار واختفى الحرف اللاتيني حيث كانت اللغة وأسماء الشوارع والميادين فرنسية وظهرت الأسماء الإسلامية والعربية في ثوبها الجديد وبخط عربي أنيق وبذلك تغير الكثير من المعالم والقوالب واستعادت الكثير من مقوماتها

العربية والإسلامية فقد كنا نقرأ ونسمع على الدوام بتعريب نواحي الحياة العامة في البلاد وتثبيت اللغة العربية في مختلف القطاعات ورحم الله ابن باديس القائل:

شعب الجزائر مسلم
وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله
فقد افترى ولقد كذب

***



في المغرب الأقصى

في يوم الإثنين الموافق ١٣/ ١٢/ ١٤٠٠هـ توجهت للمغرب بعد زيارة لتونس على متن إحدى طائرات الخطوط الجوية التونسية وقد أقلعت بنا الطائرة في رحلة استمرت زهاء ثلاث ساعات، ولقد كنا نشاهد من عل جبال أطلس حيث تكسوها الثلوج ثم هبطنا في مطار الدار البيضاء العاصمة الاقتصادية للمغرب وهي أكبر مدن المغرب قاطبة.. ولم تكن هذه هي الزيارة الأولى للمغرب فقد زرته منذ سنوات حينما كنت مدرسا في الجزائر وكانت رحلاتي للمغرب في فصل الشتاء ونزول الأمطار وهبوب الرياح الباردة..

ووصلنا إلى مطار النواصرة بعد الظهر وخرجت من المطار وإذا بأحد السائقين يأخذ حقيبتي والتفت إليّ سائلا: أين تحب أن تنزل؟ فقلت له: لا تسألني اذهب بي إلى أي فندق في قلب المدينة فإن طاب لي المقام به مكثت فيه وإذا لم يكن أنتقل إلى غيره خاصة أن ليس معي من الأمتعة أوالحقائب ما يثقلني أو يعوق تحركي، فانطلق بسيارته حتى وقف بي عند فندقين أحدهما يدعى المنصور والآخر مرحبا فقلت له: فلنذهب إلى هذا الذي يرحب بنا وعسى أن يكون الاسم مطابقا للواقع.

وبعد استراحة قليلة في الفندق خرجت متجولا في قلب المدينة وكانت الشوارع مكتظة بالمشاة والسيارات كما أن المقاهي مليئة بالرواد ودلفت إلى إحدى المقاهي الواقعة في شارع محمد الخامس فاحتسيت شايا أخضر مغربيا وتعرفت خلال تلك الجلسة على أحد الأساتذة المغاربة وكان على جانب من العلم والأدب فتجاذبنا أطراف الحديث عن المغرب والأندلس وإيراد الشواهد العربية من الشعر والأمثال وعن العادات والتقاليد في المغرب حتى أنساني متاعب السفر والاغتراب، فالأحاديث الأدبية واللغوية العذبة الجميلة جعلتني أسترد ذاكرتي فتحدثنا عن تاريخ قرطبة وغرناطة والقيروان وفاس ومراكش وعلمائها وأدبائها فمضى الوقت ودعاني لزيارة دارته في ضواحي المدينة ولكني اعتذرت حيث سأذهب غدا إلى الرباط وفاس وعدت إلى الفندق فوجدت بعض الإخوان السعوديين وبقيت معهم في بهو الفندق حيث دارت الأحاديث الشيقة وطاب السمر، ولم نتمكن من الخروج حيث بدأ المطر يهطل والسحب الكثيفة تجلل السماء والبرق يلمع في الجو.

وفي الصباح قمت بجولة على ضواحي المدينة وعلى شاطىء البحر حيث المناظر والدارات الجميلة تتناثر على جانبي الطريق، وأينما سرحت النظر يقع على مناظر طبيعية خلابة كما

طليت أغلب البيوت والفنادق بالدهان الأ بيض مما يصدق عليها هذا القول:

صدق الذي سماك بالبيضاء من أجل مالك من يد بيضاء
إن البياض لنصف حسن ذوي البهاء وبياض حسنك حاز كل بهاء
فبياضُ غرتك المضيئة أخضرا ورباك تحت القبة الزرقاء
لا غرو أنت جميلة المدن التي في غربنا جلت عن النظراء
ذات الحضارة والنضارة والتجا رة والعمارة من بنى حواء

***

وحينما كنت أطوف في شوارع وميادين الدار البيضاء كان المطر يهطل والبرق يلمع فذكرت قول الأعرابي:

ألا أيها البرق الذي بات يرتقي
ويجلو ذرى البيضاء ذكرتني نجدا
ألم تر أن الليل يقصر طوله
بنجد وتزداد الرياح به بردا

قول الآخر:

فيا حبذا نجد وطيب ترابه
إذا هضبته بالعشى هواضبه
وريح صبا نجد إذا ما تنسمت
ضحى أو سرت جنح الظلام جنائبه

وفي المغرب الأقصى ووسط أجواء الأمطار المتواصلة تذكرت نجدا ومرابعه وسألت الله أن ينعم بالغيث والمطر، فغزارة الأمطار تجعل من تلك الربوع أرضا خضراء مزدانة بأنواع الزهور الطبيعيةالمختلفة الألوان، ولكم تحدث الشعراء بطيب الهواء ونقاء الجو وثراء المراعي وخصوبة أرض نجد.

جولة في الأحياء القديمة:

قمت بجولة في الأحياء القديمة في المدينة وبها حركة ونشاط تجاري كما زرت المتحف الوطني وتجولت في الأسواق الخاصة بالتحف والتراث الشعبي، وحينما كنت أتجول في تلك الأسواق رجعت بذاكرتي إلى الأ يام التي زرت فيها هذه الأماكن منذ خمسة عشر عاما حيث

طافت بذهني بعض الصور والذكريات.

وفي المساء قمت بجولة على بعض المكتبات الموجودة في قلب المدينة فوجدت اهتماما وإقبالا على نشر كتب التراث والتاريخ الإسلامي.

وفي الصباح توجهت للرباط على سيارة خاصة وكان الجو بديعا إذ كان غائما والمطر يهطل رذاذا، وكانت المناظر رائعة حقا فالأشجار والمزارع والبساتين منتشرة في كل مكان والأرض كأنها بساط سندسي، وقد استمرت الرحلة ساعة ونصفا وصلت بعدها إلى العاصمة وعلى الرغم من حاجتي إلى الراحة فلم أستطع مقاومة الرغبة في التجول في المدينة فخرجت بعد استراحة قصيرة في الفندق إلى التجول على قدميّ ومشاهدة شوارعها وميادينها ومتاجرها وعدت للفندق بعد ذلك، وقبيل غروب الشمس بقليل استأجرت سيارة تجولت فيها على نواح متفرقة من الرباط الحديثة والقديمة، ولكم رددت قول أحد شعرائها حينما كنت أطوف بين ميادينها ومعالمها كقول الشاعر:

إن الربـاط له فضل على المدن
لأن فيـه سلـو الروح والبـدن

وقول الآخر:

رباط الفتح مأوى الفاتحينا
بدارته يطوف الناس حينا
إلى المنصور نسبته وأعظم
به نسبا يزكي الناسبينا

وقول الشاعر:

ســـلا والربـــاط محـــط الأدب
وســوق عكاظ ســراة العـــرب

وفي اليوم الثاني قمت بزيارة لبعض المؤسسات العلمية ومكتب تنسيق التعريب، ثم خرجت قاصدا مدينة فاس وهي من أهم المدن التاريخية القديمة وتعتبر مركزا إسلاميا وثقافيا هاما حيث كانت مركزاً لدراسة العلوم الشرعية وقد تخرج فيها كثير من علماء المسلمين وكانت ذات مكانة رفيعة، وما ان قاربنا فاس حتى شاهدت البساتين والمزارع وكأنها روابي خضراء..

وبعد جولة في المدينة القديمة ذهبت لجامع القرويين وأديت صلاة الظهر وقد امتلأ الجامع

بالمصلين وكان مفروشا بالحصر الجميلة، وفي الجامع التقيت ببعض الإخوان المغاربة من رجال العلم الذين أخذوا يضفون علينا من كرمهم بالدعوة إلى تناول القهوة في منازلهم فاعتذرت لهم شاكرا حيث كان الوقت ضيقا وكنت حريصا على أن أرى شيئا من معالم المدينة وزيارة بعض المكتبات والاطلاع على بعض المخطوطات في إحدى مكتبات المدينة القديمة.. ولقد تأثرت من قوة الرابطة الروحية الاخوية التي تجعل أولئك الإخوة يشعرون نحونا على بعد الدار ولا غرو فوشائج الدين واللغة والتاريخ المشترك لها تأثيرها وفعاليتها، فمنذ سطع النور على هذه الأرض وأشرق ضوء الإسلام وطلع البدر تحرر المغرب العربي من ربقة وسلطة الرومان الذين بسطوا نفوذهم عليه طويلا فانتظم في أمة واحدة دينها الإسلام ولسانها العربية وحاكمها القرآن وبقى شامخا شموخ المنارة الرفيعة منذ الخلافة الإسلامية التي أنقذته من سلطان الرومان، ولكم قلت للكثيرين ممن أتيح لي اللقاء بهم حينما جمعني مجلس في دور بعض الإخوان التونسيين والمغاربة وفى أحاديثنا انجر الكلام إلى أن استحضارنا دائما لما صنعه أسلافنا من تاريخ مشرف وأمجاد عظيمة وتراث عريق يجعلنا نستحضر تلك المعاني ونتمثلها ونستوعب مضامينها بحيث تحفزنا دائما إلى أن ننهج منهج الأسلاف ونكون في مستوى ما كانوا عليه من سمو المكانة وعلو المنزلة وعظيم المجد وكريم التعاون والوعي لطبيعة التحديات التي تواجهنا وترمي إلى إعاقة مسيرتنا.. كما تناقشت مع بعض الإخوة عن اللهجات العامية المغربية التي سمعتها والتي تختلف من منطقة إلى أخرى وتأثرها ببعض اللغات المجاورة كالفرنسية والاسبانية فضلا عن البربرية حيث انتقلت إليها مفردات كثيرة من هذه اللغات، والواقع أن اللهجات العامية في المغرب العربي ليس من السهل على العربي المشرقي أن يفهمها ويعرفها. ولذا فإن هذه اللهجات هي خطر يتهدد اللغة العربية الفصحى فهل يدرك ذلك دعاة العامية الذين تارة يدعون إلى الكتابة بالحروف اللاتينية وتارة إلى العامية، ويدعون إلى إسقاط الإعراب والفصحى؟. حقا إن الحديث عن موضوع الفصحى والعامية حديث ذو شجون بله يهيج الشجون على حد تعبير الشاعر العربي القديم:

وحدّثني يا سعد عنهم فهجت لي
شجوني فزدني من حديثك ياسعد

ولا أريد أن استطرد في هذا الموضوع فقد كتبت فيه مرارا وتحدثت عنه في أكثر من مناسبة. وما أصدق قول الشاعر:

من يعرف الشمس لم ينكر مطالعها
أو يبصر الخيل لا يستكرم الرمكا

وقول الآخر:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
و ينكر الفم طعم الماء من سقم

وإنكار الفصحى بمثابة إنكار الأمر المحس المشاهد:

وليس يصح في الأذهان شيء
إذا احتاج النهار إلى دليل

إن حفظة اللغة أفرادا ومجمعيين قد أبلوا بلاء حسنا في ميدان مقاومة العامي والدخيل من كلمات الحياة العامة وابتداع ألفاظ فصاح تحل محل الألفاظ العامية والأعجمية بما في ذلك مسميات ومصطلحات الحضارة وأدواتها ومعانيها.

ومن فاس توجهت صوب مكناس لإلقاء نظرة عجلى عليها ولعل خير وصف لهذه المدينة الجميلة هذه الأبيات:

يا رائداً للروض والإيناس
عرج لشم الزهر في مكناس
بلد حباه الله كل لطافة
وحماه من كدر ومن أدناس
وكساه من ثوب الجمال أرقة
ووقاه من شر ومن وسواس
فغدا بوجه القطر شامة خده
وبجيده عقدا من الألماس

خلال وجودي في المغرب وزيارة بعض المكتبات اطلعت على مجموعة من الكتب والدواوين الشعرية لبعض أدباء وشعراء المغرب فوجدت أدبا يجمع بين القديم والحديث في المعاني والمقاصد والأهداف ومعايشة الواقع الحضاري إلى جانب ما قرأته لبعض الشعراء من شعر رصين يضاهي شعراء المشرق، ويمتاز بصفاء القول وسمو الخيال وعراقة الماضي وابتكار الحاضر.. ولقد تحدثت مع أحد المسؤولين عن دور النشر والمكتبات عن عدم تسويق هذه الدواوين والكتب إلى المشرق ليتيسر للقارئين والباحثين الاطلاع على هذه الآثار ودراستها وفهم أدب المغرب فذكر لي عدة ظروف كعدم وجود موزعين وقلة الإمكانات وما إلى ذلك وقدم لي أكثر من قائمة تضم مجموعة من الكتب والدواوين مما يدل على أن الأدب يحظى باهتمام و يتبوأ مكانة طيبة، ولقد اطلعت على مجموعة من الصحف والمجلات فوجدتها تحفل بنشاط أدبي وتساير التطور الحديث شكلا وموضوعا.

وبعد تمضية بضعة أيام في ربوع المغرب الحافل بالآثار والأمجاد العربية الإسلامية حيث مر تاريخه بحقب وعصور وأسهم في نشر الإسلام في القارة الإفريقية.

ودعت تلك الربوع مردداً قول القائل:

نزلنـــا ها هنـــا ثم ارتحلنـــا
فـدنيـــانا نـــزول وارتحـــــال



في روما

كانت روما أول مدينة أوروبية أستقر بها[1] بعد مغادرتي أرض الوطن الحبيب في طريقي للولايات المتحدة الأمريكية وكان المقام بها قصيرا وليس لدي تأشيرة دخول تمكنني من البقاء طويلا وتفاهمت في المطار مع المسؤولين فأعطوني إذنا بالدخول لمدة يومين، ومادام الوقت محدودا فلابد لي من الحرص على الوقت وعدم ضياعه فيما لا يجدي، وذهبت لأحد الفنادق وبعد أن مكثت برهة من الوقت طلبت من مكتب استعلامات الفندق أن يتصل بإحدى شركات السياحة فاتصل بعدة شركات فلم يجد لي مكانا، ثم كرر الاتصال بإحدى الشركات فأخبرني بأن هناك رحلة بعد الساعة الحادية عشرة ليلا فهل توافق على الذهاب فيها؟ فقلت: نعم لأن وقتي محدود وإقامتي محسوبة بالساعات ومن الخير ألا أضيعها. ولكم رددت قول الشاعر:

إن الغريب معذب أبدا
إن حل لم ينعم وإن ظعنا
العين بعد فراقها الوطنا
لا ساكنا ألفت ولا سكنا

وفي الفندق صدفة التقيت بأحد الإخوان السعوديين وفرحت بلقائه حيث ذهبنا سويا نستطلع معالم المدينة ونطوف بين أحيائها وميادينها وشوارعها ومتاجرها المكتظة بشتى البضائع والناس وقد كنا نسير على أقدامنا، وبعد أن نظرت إلى ساعتي وجدت الموعد الذي حددته مع الشركة السياحية قد اقترب فعرضت على صديقي أن نعود للفندق لانتظار سيارة الشركة وفي قاعة الفندق كنا ننتظر وإذا بشاب يقف أمامي وينادي على اسمي وبكل أدب قدم لي ورقة تحمل اسم الشركة السياحية وبرنامج رحلاتها، وسألته: هل يوجد مكان شاغر لاصطحاب زميلي؟ فأبدى أسفه بذلك فودعت صديقي وصعدت إلى السيارة التي انطلقت بنا تجوب شوارع روما في الليل البهيم حيث أرخى الليل سدوله.

وكانت شوارع المدينة متلألئة بثريات الكهرباء المتألقة التي تشع بنورها اللماع، وبدت مناظر المدينة جميلة ومشرقة وأضفى عليها الليل روعة وسكونا وجمالا وقد كان مرشد الرحلة يمتاز بحنجرة قوية وصوت مرتفع مما ساعدنا على اليقظة والانتباه، وقد كان بجواري سائح استرالي ينعم بنوم عميق إذ أمضى الرحلة كلها نائما وكأنه جاء لهذه الرحلة لكي ينام ولقد سألته في

---

(١) كانت الرحلة في عام ١٣٩٣ هـ

نهاية الرحلة ونحن ندلف إلى باب الفندق، لماذا آثرت النوم طوال وقت الرحلة أليس من الأفضل أن تستريح في الفندق؟ فقال: إن النوم لا يأتيني حينما يكون الجو هادئا بل أفضل النوم وسط الضجيج والسيارات وهذا شأني في أغلب الرحلات السياحية فقلت: سبحان الله ولله في خلقه شؤون.. لقد أمضينا ساعات نتجول ركبانا بين معالم المدينة وآثارها المنتشرة في كل جزء من أجزائها.

ولكم تذكرت وأنا أطوف بين أحيائها وشوارعها وميادينها ما كانت تحفل به هذه المدينة في سابق عصورها وسالف أيامها أيام الإغريق والرومان وما بلغته من أوج الرقي والتقدم وما بسطته من سيادة على مختلف البلدان، وان اسم روما مقترن في ذهن السائح بأشياء كثيرة وأساطير عديدة وتقول إحدى الأساطير المشهورة والتي يتناقلها المؤرخون حول تأسيس مدينة روما إن أصل روما يعود إلى بعض قبائل من الشعوب الإيطالية كانت تنزل في أكواخ مبنية من الطين وتشتغل بالرعي والزراعة وسرعان ما قامت قرى جديدة على تلالها السبعة المشهورة الممتدة على شواطىء النهر حتى نمت المدينة وتطورت إلى الحد الذي جعلها تدخل في حرب وصراع مع قرطاجنة وكان ذلك قبل الميلاد بأكثر من قرنين.

والواقع أن مدينة روما مليئة بالآثار والمتاحف والأماكن الأثرية القديمة وقد حافظوا عليها حيث أصبحت مزارا للسائحين من مختلف البلدان.

وبعد تجوال طويل بين مناظر المدينة ومقر الفاتيكان ومشاهدة قديمها وحديثها وقصورها وميادينها وقلاعها ونوافيرها وأبراجها. وأينما اتجه السائح سيجد فيها ما يستحق النظر ويغري بالمشاهدة لأنها تحكي تاريخا طويلا ممتدا عبر قرون طويلة وعصور سحيقة ولذا فإن معالمها القديمة تستأثر بنصيب كبير من وقت السائح، وإيطاليا على العموم تمتاز بمناظر خلابة ساحرة وطبيعة جميلة فاتنة، ولقد لاحظت من خلال من تعاملت معهم من السكان عدم اكتراثهم بالسائحين مما يجعل السائح غير سعيد ببقائه هنا.. كما أن المرأة الايطالية تشارك الرجل في مختلف حقول العمل وتمارس العمل التجاري بشكل كبير إلى غير ذلك من الأعمال التي تتصل بشؤون المرأة. لقد اشتهرت إيطاليا بالرسامين ولقد شاهدت الكثير من اللوحات البديعة المؤثرة مما يدل على براعة ومقدرة ومواهب فنية رائعة.. كما أن المعاهد الأكاديمية الفنية تمتلىء بها إيطاليا إلى جانب اهتماماتهم بما يتصل بالزينة والأثاث والمفروشات ومازال الكثير من الناس ينتجعون ايطاليا لشراء تلك الحاجات.

إن إيطاليا بلاد جميلة وتمتاز بمناظرها البديعة وهي بلاد سياحية وتجارية وكلما كان الإيطاليون على جانب من اللطف والسماحة والابتسامة واحترام السائح وحسن معاملته كلما ارتفع عدد السياح ورجال الأعمال.

وبعد تمضية يومين ذهبت للمطار للسفر على الخطوط الجوية الإيطالية ووقفت في صف طويل وبعد أن جاء دوري أخبرني موظف الخطوط بأنه لا مكان لي وعليّ أن أنتظر لحين تخلف أحد من الركاب فأعطيته رقم الحجز وصورة البرقية من مكتبهم في الرياض فقال: إن ذلك لا يجدي شيئا. فأخبرته بأن موظف الخطوط قد استلم حقيبتي وأفهمني بأن سفري على هذه الرحلة حين وصولي. وفهمت أنه لا فائدة من المناقشة مع هؤلاء، وبعد انتظار عدة ساعات فوجئت بمكبر الصوت ينادي على اسمي بسرعة مراجعة الخطوط الإيطالية وبعد فحص تذكرتي وقطع ورقة السفر طلب مني الموظف أن أجري للطائرة وبأقصى سرعة وسألت عن حقيبة أمتعتي فقال لي: سبقتك إلى الطائرة.. ولكن تبين بعد ذلك أني سبقتها إلى شيكاغو بل فقدتها إلى الأبد.. وفي شيكاغو جاءني موظف الخطوط معتذرا ومبديا أسفه لضياع حقيبتي وأخذ عنواني ورقم الهاتف والمنزل.. ولكن مضت الأيام ومازالت في عالم النسيان على مدى الزمان..



في لندن

في يوم ١٥/ ٧/ ١٣٩٤هـ غادرت مطار شيكاغو إلى لندن و بعد رحلة استمرت أكثر من تسع ساعات من الطيران هبطت الطائرة في مطار لندن و بعد الانتهاء من إجراءات الدخول المعتادة قصدت مدينة لندن وأويت إلى أحد الفنادق في قلب المدينة.. ولقد كان الطقس في لندن لطيفا يغري بالنزهة رغم أنه غائم و ينذر بالمطر، و بعد استراحة قصيرة خرجت من الفندق أتجول في شوارع المدينة و بين جنباتها ومتاجرها، ومدينة لندن من أكبر العواصم الأوربية وأكثرها ازدحاما بحركة السير والسياحة ومتاجرها غاصة بالسلع المختلفة، ولعل شارع اكسفورد هو أشهر منطقة للتسوق في لندن وكذلك البيكاديلي وريجنت و باكر وغيرها من المناطق والشوارع ذات الحركة والنشاط والازدهار. ولكم كتب الرحالة والمؤرخون عن هذه المدينة فقد كانت عاصمة الدنيا وتوالت عليها صور من الأمجاد والماضي العريق و بقيت الآن حروفاً في سطور.

وفي اليوم الثاني توجهت لحديقة هايدبارك أشهر المتنزهات حيث زانها الربيع نضرة وزينة وجمالا، وكانت مليئة بأفواج من الناس من مختلف الجنسيات.. والأوربيون بصفة عامة يستمتعون بالربيع و يبتهجون به لأن الشتاء في أوربا همّ ثقيل و برد قارس وغيوم وأمطار وثلوج كما أن الغمام المتراكم يسد الآفاق والثلج المتراكم يملأ الطرقات فهم في شوق دائم وحنين متواصل إلى الربيع فهو حيوية وحياة وحركة بعد انقباض وكآبة، فالربيع تجديد في حياتهم ونشاط لهم فالربيع والشمس والدفء أمور حيوية هامة في حياة أوربا وغيرها من البلدان التي هي شبيهة بمناخها بعكس بلادنا التي أنعم الله عليها بالشمس المشرقة طوال العام حتى ألفتها النفوس لأنها لا تنقطع وفي ذلك حكمة.. ولذا فلم يحفل الأدب العربي بروائع قصائد الشعر في الشمس والدفء.

وفي هذه الحديقة شاهدت ألوانا شتى من الأجناس واللغات وغرائب العادات وطرائف التصرفات وطبائع الشعوب المختلفة والأصوات المتعددة حيث ترتفع الأصوات في النقاش و يغلظ القول و يزداد صلابة وقوة وخشونة، ولقد تذكرت قول إمام البيان الجاحظ حينما قال في الأعراب: إنما خشنت أصواتهم لمخاطبتهم الإبل، ولكن القوم الذين شاهدتهم لا أتصور أن أحدا منهم قد خالط الإبل بل وحتى شاهدها، ولقد شاهدت شابا عربيا يتحدث عن قضية فلسطين ولم يكن ينصت إليه إلا بضعة رجال فتذكرت قول شاعرنا العربي:

قد طال نظمي للأشعار مقتدرا
والقوم في غفلة عني وعن شأني

هذي المعاني تناجيهم فمالهم
لا ينصتون بأفهام وأذهان

وإن لندن لمدينة كبيرة وهي ذات تاريخ قديم فهي قد أسست قبل الميلاد بـ٤٣ عاما عندما شيد الرومان قلعة صغيرة على ضفاف نهر التايمز، والتاريخ يسجل أحداثا درامية ورهيبة مرت بها هذه المدينة. وفي هذا العصر تغيرت واتسعت فهي المدينة الثانية في العالم وأكبر موانىء أورو با إلى جانب كونها اليوم مدينة سياحية ومركزاً للمال والتجارة ورجال الأعمال نظرا لضخامتها واتساعها وموقعها، وحديقة هايد بارك تعتبر من أجمل المتنزهات التي تقع في غرب لندن ولقد كانت في الماضي حديقة صيد تابعة للملك هنري الثامن والمعروف بسفاح النساء، و يرتاد هذا المتنزه مئات بل آلاف من الناس حيث يمضى الجميع وقتا ممتعا و بهيجا حيث المناظر المتعددة والمشاهد المتنوعة والخطباء من مختلف الأشكال والأجناس وحيث الحلقات التي تتجمع فيها أعداد من الناس وذلك من العلامات البارزة في هذا المكان.. وفي هذه الحديقة يلتقي المرء بأعداد كبيرة من السياح والمصطافين وإلى جانب ذلك توجد الكتب المعروضة والصحف والمجلات وألعاب الأطفال إلى جانب البحيرة الجميلة بزوارقها اللطيفة حيث تؤجر للراغبين.. و بعد التجوال في جنبات هذه الحديقة التقيت بمجموعات كبيرة من الإخوان العرب واقترح أحد الاخوة أن نبتعد قليلا عن قلب لندن وضوضائها وأن نذهب في رحلة نهرية نروّح بها عن نفوسنا ونشاهد خلالها الكثير من معالم لندن من على ظهر قارب آلي في نهر التايمز، فاستغرقت رحلتنا بضع ساعات تمكنا خلالها من مشاهدة بعض المناظر العامة لمدينة لندن وسهولها وهضابها ومرتفعاتها وقصورها التاريخية وعماراتها العالية وفنادقها وساعتها الشهيرة[1].. وفي يوم آخر قمت بزيارة لبعض متاحفها إذ أنها تحوي أصنافا شتى من المتاحف العلمية والجيولوجية والزراعية والبحرية والتاريخية.

وخلال زيارتنا لمتحف لندن شاهدت ألوانا شتى من المعروضات فهو يطلع الزائر على تاريخ لندن منذ القدم إلى عصرنا الحاضر وقد كان المبنى من القصور الملكية القديمة.

وذهبت بعد ذلك لحديقة لندن للحيوانات وهي حديقة واسعة الأ رجاء وتحتوي على أصناف الحيوانات المشهورة في العالم، وقد أخبرنا المرشد إلى أنه يوجد بها أكثر من ٨٠٠٠ حيوان من شتى أرجاء العالم، و بعد التجوال الطو يل قصدنا المطعم للاستراحة به وتناول طعام الغداء.

---

(١) ولكم أجاد الصديق الشاعر محمد بن أحمد العقيلي في تصو ير ذلك بقوله:

وعلى الشمس طفنا برهة ... فاسأل النهر عن المرأى الفريد
امتطينا موجه في ضحوة ... والسما تختال في زاهي الترود
يمخر الفلك بنا في لجة ... من لجين كسنا الصبح الوليد

ثم خرجت في رحلة إلى الريف الإنجليزي حيث الهدوء والجمال والمناظر الخلابة والنسيم العليل والمناخ الجميل والشاطىء البديع، والرياض الغناء والسفوح الخضر الجميلة.

و بعد تمضية عدة أيام في لندن غادرتها والنفس مفعمة بشتي الانطباعات والذكريات.



في مكتبة المتحف البريطاني

المكتبات في كل أمة عنوان وعيها ودليل رقيها وتطورها ، كما أنها مقياس لتقدم تلك البلاد ونهوضها إذ هي من أهم ركائز المعرفة ودعامات العلم ، فهي زاد لا ينضب تتحف القارىء والباحث والطالب والمعلم ورواد العلم والآداب والفنون بروافد ثرة و ينابيع متدفقة من الفوائد والمعارف والعلوم .. ولقد أتيح لي خلال وجودي في لندن زيارة مكتبة المتحف البريطاني في لندن وهي من أكبر المكتبات في العالم وأحفلها ولها من الشهرة والمكانة مما هو معروف لدى الباحثين والدارسين ، وعند الباب الداخلي وجدت خارطة توضح أقسام المتحف المتعددة وعند الدخول للمكتبة يحتاج الإنسان إلى المرور بمكتب الأمين العام لتعبئة بعض النماذج والأوراق وذلك للحصول على بطاقة تعطيك حق الدخول إلى المكتبة مع تحديد الأيام التي تحتاج إليها في ارتياد المكتبة . ولقد رأيت العديد من رجال العلم والمعرفة والباحثين والدارسين قد جاءوا من مختلف البلدان وشتى الجامعات ومراكز البحوث وغيرهم من الطلاب الذين يحضّرون الرسائل العلمية ..

وفي هذه المكتبة تشاهد أصنافا شتى من الناس ، و بعد استكمال إجراءات الدخول وزعوا علينا مجموعة من النشرات تحمل بعض الملاحظات للقراء والزائرين عن كيفية استخدام غرفة القراءة وقاعة المكتبة والتنظيمات التي تحكم السلوك العام داخل الغرف وكيفية الحصول على الكتب وطريقة إعادتها في نهاية اليوم . وفي حالة الرغبة في الاحتفاظ بالكتاب في اليوم الثاني فلابد من كتابة الاسم على ورقة صغيرة موجودة مع الكتاب حتى تتمكن من الحصول عليه غدا بيسر وسهولة ، ومتى أراد القارىء حجز كتاب لليوم التالي فلابد من إعطاء الاسم ورقم المقعد حتى يصل إليه الكتاب .. أما الوثائق والخرائط والمخطوطات فيوجد لها دليل خاص وللحصول على ما يريد الباحث فلابد من الاستعانة بأحد المرشدين في المكتبة . أما المراجع العلمية فهي موجودة بجوار المقصورات المعزولة صوتيا في داخل المكتبة ..

أما القراء الذين يرغبون في استخدام المايكروفيلم أو المايكروفيشات أو المياكروكارد فإن عليهم أن يتقدموا بطلباتهم إلى الموظف المختلص بقاعة المكتبة ومن ثم تقديم ما يطلبه القارىء بسرعة وسهولة ..

وفي هذه المكتبة تتم الخدمات الإعلامية باستخدام الكمبيوتر فيمكن للقارىء الحصول على المعلومات التي يحتاجها من معرفة بقوائم الكتب أوالحصول على مقالات و بحوث حول موضوعات معينة ..

كل ذلك يتم بطريقة معينة عن طريق الحاسب الاليكتروني وفي مقابل بعض الرسوم لتلك الخدمات.

وفي قاعة المطالعة شاهدت مئات المجلدات التي تشتمل على قوائم الكتب المقيدة لدى المكتبة وهي مرتبة ترتيبا أبجديا تحت رؤوس موضوعات، ولقد لاحظت أن أغلبها منذ عام ١٨٨١م إلى ١٩٦٠م أما الكتب الأخرى فهي مدونة على شريط في الفترة من عام ١٩٦١م إلى ١٩٧٥م كما يوجد شريط يحتوي على جميع الكتب والمراجع التى اقتنتها المكتبة منذ عام ١٩٧١م إلى ١٩٧٥م.

وخلال زيارتي للمتحف توجهت لزيارة القسم الشرقي من مكتبة المتحف وهناك التقيت بمدير القسم العربي الدكتور ياسين الصفدي فأخبرته برغبتي بالاطلاع على قوائم الكتب العربية المطبوعة الموجودة لديهم وكذا المخطوطات العربية فيسر لي الاطلاع على بعض الكتب والمخطوطات العربية ولقد اطلعت على فهرس الكتب العربية الموجودة في المتحف.. ثم تحدثنا عن الكتب العربية والمؤلفات والمخطوطات وعن الاستشراق والمستشرقين ودورهم في نشر التراث واطلعت على بعض المخطوطات ومن ذلك كتاب لأحد المستشرقين بعنوان «يوميات من ينبع إلى القطيف» وهذا الكتاب في طريقه لأحد الناشرين في الكويت وأبى كرم الأستاذ الصفدي إلا أن نعطيه موعدا للغداء فكان لقاء في أحد المطاعم المجاورة للمكتبة الشرقية فكانت فرصة أخرى للحديث عن المكتبة العربية والمخطوطات وعن جهود الناشرين لكتب التراث وعن المكتبة الشرقية وما تقدمه من تسهيلات للباحث وتحدثت عن أهمية العناية بهذه المخطوطات ووضع فهارس شاملة لها وتوزيعها على المهتمين بذلك ونشر دراسات وافية عن نوادر المخطوطات..

إن القسم العربي في المكتبة يحتوي على أكثر من مائتي ألف مطبوع وحوالى عشرة آلاف مخطوطة وغير ذلك من الوثائق.

ورغم الساعات الطويلة التي أمضيتها في رحاب المتحف البريطاني وقاعاته المختلفة التي تحتوي على بعض الآثار والمقتنيات الشرقية والرومانية وكذا بعض الرسوم الفنية فلم أتمكن من مشاهدة ورؤية الكثير مما يشتمل عليه المتحف.. وخرجت وأنا أحمل شتى الانطباعات وأجمل الذكريات وهي جديرة أن تذكر في سجل أوائل المكتبات..



في فرنسا

استأثر أدب الرحلات باهتمام كبير من طبقات المثقفين قديما حديثا وعنوا به لما لقراءة الرحلات من متعة فكرية ومنذ سنوات والنفس تحدثني بزيارة فرنسا والتعرف على معالمها والوقوف على آثارها.

إذ هي بلاد حضارة وتاريخ وفن واعلام وآثار كلها تستحق من زائرها الوقوف والتأمل والعبرة والاستنتاج. ومن مطار الرياض أقلعت بنا الطائرة مساء اليوم الموافق ١٧/ ١٢/ ١٤٠٢هـ حيث انطلقت بنا طائرة البو ينج السعودية من الرياض إلى باريس في الساعة الواحدة والنصف ليلا بالتوقيت الزوالي، وقد أعلن المضيف وهو شاب سعودي لطيف أن الرحلة سوف تستغرق خمس ساعات ونصفاً وسنطير على ارتفاع ٣٢ ألف قدم، ثم انطلقت الطائرة في يسر وسهولة وتجاوزنا عتبة مدينة الرياض وكنا نشاهد الأنوار المتلألئة ولم نتمكن من رؤية سواها حيث نحن في سواد الليل. لقد كنت أحرص دائما على أن يكون مقعدي بقرب النافذة حتى أرى الأرض ومعالم الطريق والسحب والبرق والمطر والهضاب والجبال ولكن هذه المرة لم أجد مكانا مناسبا وعندما سألت المضيفة قالت: إن هذا المكان الذي تجلس فيه خير مكان وهو في وسط الدرجة الأولى.

وكانت مضيفات الطائرة على درجة من الملاطفة والمجاملة للركاب، و بعد أن جلست في مكاني صافحت الجالس بجواري وإذا به السفير السعودي في الدنمارك حيث عرفني بنفسه و بعد التحية والترحيب قال لي: آمل ألا تكون متضايقا من هذا المقعد لأني رأيتك في حوار مع المضيفين والمضيفات فهذا المكان خير مكان وأحرص على حجزه باستمرار، فكانت فرصة طيبة للحديث مع الأخ الأستاذ عبدالله بن عبدالرحمن الطبيشي والسفر بطبيعته يفرض على المسافرين التعارف و يذيب الحواجز.

و بدأنا الحديث بالسؤال عن ذكريات والده باعتباره أحد رجال الملك عبدالعزيز ومعاصريه ثم تشعب الحديث وجرى في أمور كثيرة على حد قول الشاعر كثير عزة:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح
وشدت على دهم «البونج» رحالنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

ولكن الرفقة لم تدم طو يلا حيث افترقنا في مطار باريس حيث واصل سفره إلى مقر عمله،

نزلنا في مطار باريس بعد ساعات من الطيران وتوجهت صوب مقصورة الجوازات حيث إن موظف الجوازات داخل مقصورته الزجاجية وفي دقائق أنهينا الإجراءات وأخذ كل منا حقيبته دون تفتيش أو سؤال عن محتو يات الحقيبة والعملة وغيرها مما نواجهه في بعض المطارات حيث جرى ذلك في يسر وسهولة وقد رأيت المطار في غاية الضخامة والروعة وا لتنظيم.

لم أحجز قبل قدومي إلى باريس في إحدى الفنادق، وكان معي دليل الفنادق في باريس ومن مكتب الخطوط السعودية في المطار اتصلنا بعشرات الفنادق وكانت الإجابة لا يوجد مكان خال ثم توجهت لمكتب الاستعلامات في المطار فأخذ يتصل بعدد من الفنادق فلم يجدوا مكانا خاليا، وكانت الساعة الثامنة صباحا وسألتهم: وما السبب في ذلك؟ فقالوا: إن هذا الشهر بالذات يندر أن تجد مكانا دون حجز مسبق فشهر سبتمبر بالذات تكثر فيه الاجازات وهو شهر السياحة وكما أن المعارض التي تقام هذه الأيام ساعدت على هذا الازدحام، وشعرت بالصدفة و بأني وقعت فيما لم أكترث به ثم قلت: لصبر مفتاح الفرج. عجبا مدينة سكانها عشرة ملايين تضيق بي اليوم ولم يخفف من شعوري بالصدمة ولا من عتبي على نفسي بعدم الحجز المسبق حيث أقبل علي شابان سعوديان كانا من ضمن الرحلة فقالا: تفضل معنا فلدينا حجز في فندق «المريديان» وما يسعنا يسعك والكثير يتعرض لمثل ما تعرضت له ولكن عندما يذهب الإنسان إلى الفندق يجد به مكانا، فامتطينا إحدى سيارات الأجرة وقد كان المطار بعيدا عن المدينة وقد كانت الخضرة والأشجار تضفي على الطريق جمالا مرددا قول الشاعر: نزلنا بها واستوقفتنا محاسن...

وكان سائق السيارة شابا عربيا مغربيا وقد كان الجو باردا والسماء مكسوة بالسحب والمطر يتساقط رذاذا، ثم لاحت لنا مدينة باريس بجمالها وروعتها ومناظرها ورأينا نهر السين الذي يخترق المدينة واجتزنا العديد من الجسور حتى وصلنا إلى فندق «الميريديان» وقبيل الوصول إلى موظف الاستعلامات قال لنا أحد الواقفين: لا يوجد مكان خال، وكان الفندق يغص بالناس عصبة من الأمم من شتى الأجناس، فاتجهنا صوب المسؤول عن الحجز وناوله أحد الإخوان ورقة الحجز فقال: نأسف حيث لا يوجد مكان وعليكم مراجعتنا غدا فربما يوجد مكان.. فوضعنا حقائبنا وخرجنا نبحث عن فندق آخر. وكانت المدينة نائمة فلم نجد في الشوارع سوى العاملين في تنظيف الشوارع حيث يغسلونها صباحا، وقد كنا في حاجة شديدة إلى الراحة حيث لم ننم طوال الليل ولكن أين الفندق الذي نجد فيه سكنا؟ فتجولنا في عشرات الفنادق من ذوات النجوم الكثيرة والصغيرة فلم نعثر على مكان إلا بعد أسبوع فرجعنا إلى الفندق الذي تركنا فيه أمتعتنا فأشار إلينا أحد العاملين بمراجعة قسم الحجز الذي أفادنا بأن هناك بعض القاطنين في الفندق أبلغوه بسفرهم فناولنا بطاقات لتعبئتها وطلب منا الانتظار حتى تهيأ المكان.

لقد كان هذا الفندق على درجة ممتازة من الضخامة والجمال، وكان العاملون به على حالة حسنة من المجاملة، و بعد الاستقرار ووضع الحقيبة في الغرفة وقد كان التعب قد أخذ مني كل

مأخذ فأخذت قسطا من الراحة ونظرت للساعة فوجدتها قد قاربت الثانية عشرة، أربع ساعات في البحث عن فندق... وبعد استراحة قصيرة ومطالعة بعض النشرات السياحية المتنوعة عن باريس اتصلت بالصديق الدكتور عبدالرحمن الشبيلي حيث كان موجودا في باريس لتمضية العطلة الصيفية وهو بهذه المدينة خبير وعارف وكما يقول المثل «يا زائر الهند اسأل عمن يعرفها» وقد رد على الفور وكأننا على موعد وقد سعدت بزيارته في الفندق حيث أرشدنا إلى ما نريد زيارته وأطلعنا على الكثير من معالم باريس ومظاهر الحياة فاختار لنا رفيقا عارفا بها فتوجهت لزيارة بعض المعالم الحضارية فيها.

والدكتور عبدالرحمن طيب المعشر رحب البشاشة، وضنا بوقته وحرصا عليه فقد رجوته أن يختار لنا أحد العارفين بهذه المدينة، ولكنه في اليوم التالي زارنا في الفندق ودعانا معه فخرجنا سويا إلى غابة بولونيا الشهيرة قرب ميدان السباق وهي غابة تمتاز بالمناظر الخلابة، وبها مطعم فخم ــ ومقهى جميل وقضينا وقتا ممتعا وحدثنا عن باريس وعما ينبغي مشاهدته فشوقنا كثيرا إلى زيارة بعض الأماكن وكما قيل:

وذو الشوق القديم وإن تسلى   مشوق حين يلقى العاشقينا

فكانت سويعات جميلة عدنا بعدها إلى الفندق...

إن ما يجعل باريس بلدا سياحيا جميلا هو روعتها وجمالها وآثار حضارتها العريقة وآثارها ومعالمها وميادينها ومتاجرها، فهي تمثل أحد مراكز الحضارة الغربية وابتدأت بأهم مناطقها التي هي محل اهتمام الزائر والسائح: الحي اللاتيني وجامعة السوربون، وعند الوصول إلى ذلك رغبت في القيام بجولة في هذا الحي سيرا على الأقدام فشاهدت «حديقة لكسمبرج» وهي من أجمل الحدائق ومشيت في شوارع الحي اللاتيني وبعد جولة في شوارعه المكتظة بالناس والسائحين من مختلف الأجناس أعقبت ذلك باستراحة في إحدى مقاهي الحي المنتشرة بشكل كثير وخلال الاستراحة في المقهى تصورت الأدباء والعلماء الذين درسوا في جامعة السوربون وعاشوا في هذا الحي والروايات الأدبية التي كتبت فيه، وبعد استراحة في المقهى قلت لصاحبي: فلنذهب إلى جامعة السوربون ولا داعي للتفكير في أغوار التاريخ والانغماس في ذكريات الأمس وحياة السابقين، ووسط صخب وضجيج الحي اللاتيني لاحت لنا جامعة السوربون وعلى مقربة من الجامعة كان الطلاب يجلسون جماعات بقرب المقهى المجاور للجامعة وآخرون يجلسون على كراسي مهيأة للاستراحة.

وعدت إلى الفندق بعد جولة في هذه المدينة العريقة الجميلة البالغة من العمر أكثر من ألفي عام والتي تتسع البهجة فيها للملايين حيث كانت عاصمة الفنون والمواهب والرسامين والنحاتين والكتاب والموسيقيين وغيرهم ممن أتوا من كل أرجاء الأرض حيث كان المناخ

الفكري والثقافي.

حقا إنها مدينة فيها كل شيء.. كل الألوان.. كل الطبقات.. كل الأجناس واللغات الأغنياء، الفقراء المهاجرون من شتى الأمم، تقاليد مختلفة، مطاعم متنوعة وفي المساء خرجت مع بعض الأصدقاء للتجول في شوارع العاصمة وبعد استراحة قصيرة في أحد مقاهي شارعها الكبير «الشانزليزيه» ذهبنا إلى برج «مونبرناس TOURMONTPARNASSE».

وفي المساء ذهبنا إلى برج مونبرناس حيث كان الجو صافيا كما أن منظر نهر السين الذي يخترق المدينة أضفى عليها جمالا و بهاء فصعدنا إلى أعلاه إذ يحتوي على تسعة وخمسين طابقا وفي أعلى البرج شاهدنا باريس عن كثب من خلال ناظور مخصص لذلك في أعلى البرج وقد ازدحم بأعداد كبيرة من السواح حيث تجمعوا حلقا يشاهدون المدينة من عل، ولعل هذا البرج هو أبرز مكان لرؤية المدينة وقل أن يأتي سائح إلا و يذهب لهذا المكان، و بعد قضاء وقت ممتع واستراحة في أحد مقاهي البرج الذي يعج بالمئات والأشكال والتقاليع والغرائب والمتناقضات، حقا ما أجمل بلادنا وأروع صحراءها ومناظرها ولقد صدق أبو العلاء المعري حين قال:

الموقدون بنجد نار بادية لا يحضرون وفقد العز في الحضر

وما أبلغ قوله حينما يشاهد المرء فتيات باريس:

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ودخلنا مبنى الجامعة التي تعتبر أشهر وأقدم جامعات أوروبا وإحدى ركائز الحضارة الأوربية. وقد كانت فى الأصل كلية صغيرة بناها روجردي سوربون SARBONNE في عام ١٢٥٣م للدراسات الدينية وقد ألحق بها مكتبة كانت تضم العديد من المراجع والمخطوطات كما أنها كانت تتمتع بأساتذة مختارين.. وقد أعاد رو يشيلو بناءها إذ هو مؤسسها الثاني في عام ١٦٢٤م وقد أغلقت السوربون خلال الثورة الفرنسية وفي عام ١٨٢١ أصبحت مقرا لجامعة باريس التي أعيد تنظيمها فيما بين ١٨٨٥ و١٩٠١ حيث أعيد بناؤها تماما، وقد أمضيت زهاء ساعتين متنقلا بين أقسامها ومكتبتها، وما كان الوقت متسعا لزيارة جميع القاعات والأقسام وقد أعيانا المشي، فاسترحت مع أحد الأصدقاء في المقهى المواجهة لمدخل الجامعة لمشاهدة جو الطلاب في الجامعة وبعد قضاء برهة من الوقت توجهنا لبرج مونبرناس وركبنا سيارة أجرة وقطعنا الطريق خلال دقائق رغم الازدحام الهائل حيث كان الجو صافيا وكما أن منظر نهر السين الذي يخترق المدينة أضفى عليها جمالا.

الحياة في باريس غالية ولا شك لأن الدخل مرتفع وحالة الناس فيما يبدو المادية والاجتماعية ممتازة والفرنسيون يتحدثون دائما عن بلادهم بشيء من الفخر والاعتزاز، و يرون

أنهم قد وصلوا إلى أوج الحضارة والمدنية، ونسبة التعليم مرتفعة. ولاحظت أن أكثر الفرنسيين يكرهون الملونين من السود والصفر والسمر.. ورغم ذلك فان لديهم أعدادا كبيرة من المهاجرين من كل افريقيا ممن أقاموا مدة طويلة.. والشعب الفرنسي شعب ينتمي إلى الفرنجة الذين سكنوا بلاد الغال وهي أرض فرنسا القديمة في أوائل القرن السادس الهجري ولما قسمت امبراطورية شارلمان بعد وفاته وقعت فرنسا من نصيب شارك لوبراف واستمر فترة حتى قام فيليب أغسطس عام ١٢٢٣ وكان عصره عصر حروب مع ملك انجلترا وامبراطور المانيا واشترك أبناؤه من بعده في الحروب الصليبية وعلى الأخص لويس التاسع حيث هزم وأسر في مصر في مدينة المنصورة.. ولعل من الطريف أن نورد للقارىء أسطورة من الأساطير الكثيرة في تاريخ فرنسا أسطورة جان دارك التي ادعت أن الأرواح أمرتها بالذهاب لتخليص فرنسا من الاحتلال الانجليزي وفعلا حاربت مع الجنود ونجحت في تحرير بعض الأراضي الفرنسية ثم وقعت في الأسر.. ومما هو معروف أن الإنجليز احتلوا فرنسا فترة طويلة انتهت في عام ١٤٥٣م.

ولذا فقد لاحظت رواسب ذلك في نفوس الفرنسيين فهم يكرهون التحدث إليك باللغة الإنجليزية إلا عند الضرورة.. ومما يروى لي أحد الاخوان أنه تحدث مع أحد الفرنسيين وكان متعصبا للغته لدرجة أنه أجابه قائلا: احتفظ بسؤالك وكما تعرضت فرنسا للاحتلال الإنجليزي فقد تعرضت للاحتلال الألماني في الحرب العالمية الثانية ولم تتحرر من ذلك إلا في سنة ١٩٤٤.

ولنعد إلى باريس ومعالمها حيث ذهبت إلى متحف اللوفر أحد كبار المتاحف في العالم وهو قصر ضخم واسع وبه معروضات شتى ترجع في تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن التاسع عشر الميلادي وتغطي مساحات ثقافية وجغرافية شاسعة، لقد كان هذا المتحف في بدايته قلعة ثم تحولت إلى واحد من أكبر قصور العالم ويضم متحف اللوفر بين جوانبه العديد من المكاتب الإدارية والقاعات ومتحف الفنون الزخرفية وبه كنوز شتى وأعمال فنية مبدعة كما تتميز واجهاته بأهمية معمارية خاصة.

ثم قمت بجولة شاهدت خلالها برج ايفل وقصر رئاسة الجمهورية وشارع الشانزليزيه. والمسلة المصرية والتي نقلت من مصر رغم طولها.. وبقيت بارزة شامخة في نهاية شارع الشانزليزيه وعلى ضفاف نهر السين وكذا محكمة العدل وسجن الباستيل الذي يقول فيه الشاعر:

وما الباستيل إلا نبت أمس   وكم أكل الحديد بها سجينا

ومررنا ونحن في السيارة بقبر نابليون ومررنا بعشرات الشوارع الرئيسية مثل سانت جرمان وسان ميشيل وكنسية نوتردام وقوس النصر والأوبرا، ووقفت مع صحبي عند نهر السين الذي يخترق المدينة ويقف الناس على ضفافه حيث باعة الصحف والمجلات والكتب والرسامون بلوحاتهم وبعد ذلك توجهنا للاستراحة في أحد مقاهي الشارع الجميل «الشانزليزيه» وهو من

أجمل وأروع الشوارع في أوروبا كلها وعلى جوانبه المحلات التجارية الضخمة ومكاتب البنوك وشركات الطيران والمطاعم الفخمة والمقاهي الجميلة كل شيء موجود ولكن بأسعار مرتفعة، وفي هذا الشارع يشاهد المرء أصنافا شتى من البشر حيث يوجد سائحون كثيرون من عرب وعجم وأشكال وألوان متباينة نشاهدهم في هذا الشارع غادين رائحين جماعات ووحدانا منهم من يمشي الهوينا ومنهم من يسير على عجل.

خلال تجولي في هذا الشارع الجميل وفي مقاهيه الأنيقة التقيت بعدد من الإخوان والأصدقاء من سعوديين وكويتيين وقطريين ممن أعرفهم سابقا ومنهم من جرى التعارف معه ولعل الفضل في تعارفنا في هذه الديار كما يقول الشاعر:

وكل غـــريب للغـــريب نســـيب

وخلال هذا اللقاء أنست بلقاء الإخوة حيث أمضينا وقتا جميلا تحدثنا فيه عن هذه المدينة الصاخبة ومظاهر الحياة فيها...

وفي هذا الشارع دخلت العديد من المكتبات التي تحفل بالكتب المتنوعة ولعل جهلي باللغة الفرنسية من الأسباب التي لم تمكني من معرفة قيمة هذه الكتب وفائدتها.

ومع مجموعة من الأصدقاء توجهنا صوب برج إيفل ذلك البرج الحديدي الذي أقامه جوستاف ايفل والذي بناه ليكون مركزا للمعرض الفني عام ١٨٨٩م وقد عارضه في ذلك الوقت مجموعة من الشخصيات الفرنسية بحجة أنه غير مأمون ومعرض للسقوط، وقد حكى لنا أحد الفرنسيين الواقفين بجواره قصصا شتى عنه منها: أن الألمان حينما احتلوا فرنسا حاولوا تفكيكه وأخذ حديده وغير ذلك من الأحاديث التاريخية.. وقد شاهدت الناس يتفرجون على البرج وتعرضت لأسئلة كثيرة من قبل سائحين آخرين عن هذا البرج بلغات شتى وكنت أكتفي بهز رأسي.. وتركنا البرج للذهاب في رحلة لجبل السان ميشيل وهو يبعد عن باريس ثلاث ساعات إلا أن زيارته متعة للسائح حيث مشاهدة الريف الفرنسي حيث المدن والقرى الجميلة والمزارع الخضراء البديعة وهو يقع بين منطقتي البريثانية والنورماندي اللتين تلتقيان مع بحري المانش والأطلنطي وهاتان المنطقتان غنيتان بالجمال الطبيعي مما يشد السائح ويجذبه للتجول ورؤية هذه الأماكن والصخرة التي يجثم عليها هذا الجبل يعترضها المد والجزر. وهذا الجبل يعود لفترة طويلة من الزمن يعود إلى القرن الثامن الميلادي كما حكى لنا المرشد الفرنسي كما حكى لنا أساطير وحكايات متعددة حول هذا المكان مما هو قابل للصدق والكذب، ولعل منظر المدينة وأسواقها ومنازلها التي تطل من جهات متنوعة على البحر مما يلفت نظر السائح ويجعله ينعم بجو من الهدوء والانسجام والتأمل..

وبعد فترة من التجوال جلسنا في أحد المقاهي للاستراحة وإذا بشيخ طاعن في السن من

أبناء المنطقة يقبل علينا مرحبا فرددنا عليه التحية وجلس بجوارنا فسألنا: من أي البلاد أنتم؟ فأخبرناه فتحدث لنا عن بلاده وحضارتها القديمة وجعلها كل شيء فقلت له: كما هو معروف تاريخيا أن العصور الحضارية التي تشير إليها كانت بلادكم وغيرها من البلدان الأوربية تعيش عصر ركود وتخلف فكري فقد رأيتك قد ضربت صفحا عما زخرت به بلاد الأندلس من حضارة مستفيضة كان لها الأثر الكبير في أوروبا فان كنت ترى أن بلادك وحدها أم الحضارات فان أرضنا الطيبة هي منبع الوحي والعرفان، فأدرك أنه محق في حق الآخرين فارتد قائلا: نحن في مقام التحية والترحيب بكم فجهلي بتاريخ بلادكم ليس معناه إنكار ذلك التاريخ أو نقده أو التقليل من شأنه فقلت له: عندما ظهر عصر النهضة في أوروبا أقبل العلماء الأوروبيون على ترجمة مؤلفات المسلمين كما استعان ملوك أوروبا بعلماء من العرب المسلمين على تدعيم مدارسهم ومؤسساتهم العلمية وظل الأوربيون يعتمدون كلية وخلال ستمائة سنة على ترجمة الكتب العربية إلى اللغات الأوربية بل كانت النقود المتداولة في بعض البلاد الأوربية، منقوشة باللغة العربية كما أن شارلمان ملك فرنسا حينما أرسل له هارون الرشيد الخليفة العباسي ساعة دقاقة اخترعها العرب فتعجب شارلمان وظنها رجاله سحرا ولكن شارلمان أقنعهم بأنها من اختراع العرب..

ومن حديث إلى حديث سرعان ما امتلأت السماء بالغيوم الكثيفة وقبل أن يتساقط المطر عدنا إلى باريس استعدادا لرحلة يوم آخر إلى قصر فرساي الشهير..



في قصر فرساي

وفي الصباح توجهت بصحبة بعض الاخوان إلى قصر فرساي وقد كان الجو صافياً جميلاً وكان الطريق ممتعاً ــ فقدحبا الله هذه البلاد بجمال طبيعي أخّاذ يسُر الناظر و ينشرح له القلب مرددا قول الشاعر:

الأرض قد كسيت رداء أخضرا والطل ينشر في رُباها جوهرا

ولأهميته التاريخية سوف أعطيك أيها القارىء لمحة تاريخية عنه.. قصر فرساي ــ يشمل القلعة والحدائق و بهو الأعمدة ــ و يصور المدى الذي وصل إليه الفن الفرنسي. فزوار المكان منذ القدم يبهرهم فن المعمار، والديكورات، وروعة الحدائق.

وقد نبعت عظمة فرساي من قوة فرنسا منذ عام ١٦٨٢م فصاعدا حين أصبحت فرساي المقر الملكي الدائم والمركز الإداري للدولة.

وقد كان هذا القصر في البداية جناحاً متواضعاً خُصِّص لرحلات الصيد جرى تحويله أولاً إلى مقر ريفي ثم اتسع كي يصبح قلعة حقيقية تحيط بها الحدائق.

وجرى استكمال القصر بعد ذلك ببناء مدينة حتى تم اختياره في النهاية كمقر رسمي للملك و بلاطه لإدارة شؤون البلاد.

وقد قام الملوك الأربعة الذين حِكموا فرنسا منذ عام ١٦١٠ إلى ١٧٨٩ بإحداث تغييرات كبيرة على القلعة وما يُحيط بها من بيوت كل بما يتفق مع ذوقه ومفهومه لمعنى القلعة.

وكما أسلفنا القول فإن بناية القصر بدأت عام ١٦٢٣م على يد لويس السادس عشر بجناح صغير لرحلات الصيد على التل المُطِل على قرية فرساي شمالاً. وكان البناء رديئاً لا يلفت انتباه الانسان العادي أو يثير إعجابه.

لكن الموقع كان من الجمال بحيث دفع لويس الثالث عشر عام ١٦٣١م لأن يطلب من فلبرت لي روي PHILIBERT LE RAY أن يبني به قلعة من الطوب والحجارة وتكون سقوفها من ألواح الأردواز.

وحين مات الملك عام ١٦٤٣ اضطرت زوجته النمساوية الملكة آن ANNE بفعل تقلب الظروف السياسية إلى تغيير محل إقامتها باستمرار والتنقل بابنها الصبي لويس الرابع عشر ما بين

باريس وسان جرمان.

ونتيجة انبهار لو يس الرابع عشر بقلعة فرساي الصغيرة قرر في مُستهل عام ١٦٦١م أن يولي كل اهتمامه نحو تجديدها حتى يستقر هناك. و بالتالي جرى تكليف الفنانين ومهندسي المعمار بإنفاق كل وقت وجهد في توسعة وتجميل فرساي.

وكان رأي لو يس الرابع عشر أنه لا يكفي تجميل المكان بالفنون التشكيلية المرئية بل يجب إضفاء أبهة الموسيقى والأدب عليه.

وقد حرص على إقامة ثلاثة مهرجانات وتم اختيار موضوعات المهرجانات من أعمال أدبية كبرى وأو برات عالمية.

وفي عام ١٦٦٨م بعد ثاني المهرجانات الثلاثة وأشهرها جميعاً قرر لو يس الرابع عشر توسعة فرساي وأقام البنايات الثلاث الكبرى حول القلعة الصغيرة بحيث تطل على الحدائق.

ولذا أصبحت قلعة لو يس الثالث عشر مُحاطة من ثلاث جوانب بالمباني التي صممها المهندس المعماري لي فو LE VAU.

وفي الجزء الشمالي منها أقيمت حجرات الملك، وفي الجنو بي حجرات الملكة مع شرفة فسيحة تفصل بينهما وتطل على الحدائق.

و بعد وفاة أشهر مهندسي النصف الأول من القرن السابع عشر الفنان لي فو تولى ابن أخيه فرانسو مانسار FRANCOIS MANSART مسؤولية البناء ــ وقام بتمديد مساحة الواجهة المطلة على الحدائق واستبدل الشرفة بالمجمع الذي يضم الصالون العسكري وصالون السلام وقاعة المرايا.

وفي داخل القلعة بنى المعماري MANSART السلم الملكي الخاص بالملكة في القسم الجنو بي ليقابل درج السفراء في الجناح الشمالي والذي تم هدمه فيما بعد عام ١٧٢٥م.

أما الحجرات الملكية المطلــة على ساحة الرخام فتغيرت وأخذت طابعها الحالي مع غرفة النوم الملكية وسط القلعة.

وفي عام ١٦٦٩م بنى مانسارت الكنيسة الملكية التي افتتحها الملك عام ١٧١٠ بعد وفاة المهندس المعماري بسنتين، وتولى استكمال البناء صهره رو برت دي كوت DE COTTE ROBERT (١٦٦٥ ــ ١٧٣٥).

وعند وفاة لو يس الرابع عشر عام ١٧١٥ كان قصر فرساي قد استكمل شكله الخارجي

الحالي ــ وقام الملوك الذين أتوا بعده بتغيير الديكور الداخلي للحجرات فقط.

وقام لويس الخامس عشر (١٧١٠ ــ ١٧٧٤) بتحويل قصر فرساي إلى مقر لإقامته من جديد وأضاف المزيد من الأبنية، ورغم أن هذه الإضافات ترتب عليها إزالة بعض الحجرات التي كانت تبهر زوار قصر لويس الرابع عشر إلا أنها أدت إلى بناء حجرات الملك الرائعة والتي حرص فيها الفنانون على التفوق على أنفسهم في العمل تحت إشراف المعماري جاك آنج جبرابيل JACQUES-ANGE GABRIEL.

لقد كان هذا هو نفس المهندس الذي استكمل مشروعات بناء أوبرا فرساي الفخمة في واحد وعشرين شهرا في الجناح الشمالي من القلعة وتم الافتتاح عام ١٧٧٠م.

واليوم يستمر قصر فرساي في القيام بدور المتحف التاريخي.

ففي الجناح الشمالي تمثل غرف القرن السابع عشر مقدمة إلى جولة بين الحجرات الرسمية يمكن الاستمرار بعدها إلى قاعة المعارك. أما الحجرات في الجناح الجنوبي فقد خصصت لعصر نابليون. ومع تجديد حجرات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تكتمل هذه البانوراما الضخمة لتاريخ فرنسا.

لقد ترك كل من ملوك فرنسا بصماته على قصر فرساي الذي أصبح يضم كنوزا لا تُحصى بالنسبة لكل من الزائر المتلهف للمعرفة ومؤرخ الفن.

فالرائي يحس في قلعة لويس الثالث عشر بروح الفن في أواخر القرن السادس عشر والفن الكلاسيكي في القرن السابع عشر حيث تلمس التطور الرائع في الفن الفرنسي. ورغم تنوع الآثار التي خلفها سكان القصر بأذواقهم المتباينة فإن القصر يُعطي انطباعاً متكاملاً شاملاً في الانسجام والتوافق الفني.

وسط هذا الجو عاش ملوك فرساي، وفي حدائق هذا القصر ترى البساط الأخضر تتناثر عليه أحواض الزهور ذات الألوان الجميلة والنافورات المزخرفة وبرزت أهمية فرساي حيث أصبح مقراً دائماً للمعارض والمؤتمرات، وبعد أن حكى لنا المرشد أشياء كثيرة عن هذا القصر وتاريخه وأخيرا أنه تاريخ مضى ولن يرجع مهما حاول المسؤولون عن هذا القصر على إعادة الحياة إليه.

وبعد أن انتهينا من التجوال في القصر وحدائقه قمنا بالسير في البلدة التي تمتاز بمناظرها الساحرة ومتاجرها الأنيقة وشوارعها الفسيحة حيث تزخر بالحركة والنشاط السياحي. ثم عدنا بعد ذلك إلى العاصمة وخلال الطريق كنا نشاهد الريف الجميل ونتنعم بالمناظر الرائعة حيث الأزهار والأشجار والحدائق والحقول الممتدة مرددين قول الشاعر:

كست الطبيعة وجه أرضك سندساً وحبت نسيمك إذ تضوع طيبا
بسط تظللها الغصون فأينما يممت خلت سرادقاً منصوبا

وفي صباح يوم الاثنين كنت قد قررت السفر إلى لندن واتصلت بالخطوط الفرنسية لتأكيد الحجزِ وأخذت منهم مواعيد السفر فكان موعد الحضور إلى المطار صباحاً الساعة الثامنة والنصف، وقد أسرعت في الصباح في الذهاب إلى المطار وفي الموعد المحدد كنت هناك وبعد انهاء الإجراءات أخذت رقم بوابة الخروج والتفت يميناً وإذا برجل مغربي يربت على كتفي قائلاً: الأخ عربي؟ فقلت: نعم وقد فرحت بوجوده حيث كان يتقن اللغة فتعارفنا وأخذنا مقعدنا بين الجالسين في قاعة السفر، ونظراً لسعة الوقت فقد أشرت عليه أن نتجول ونشاهد ما بقربنا من أمكنة كالسوق الحرة والمقهى والمكتبة والمصرف لاستبدال النقود الفرنسية التي بقيت معي ــ وكان أخونا المغربي متحدثا بارعا باللغة الفرنسية فتحدثت إليه مما انطبع في ذهني من ذكريات عن باريس وعن فرنسا عموماً فزادني معرفة بأمور كثيرة بحيث تمنيت أن يطول أمر الجلوس والانتظار ولكنا افترقنا وقد كانت وجهته روما بينما أنا مسافر إلى لندن، وهكذا ستبقى الأسفار رغم متاعبها فيها الذكريات والتعارف إلى جانب فوائدها الخمس المعروفة.



في الأندلس

كانت زيارة الأندلس بالنسبة لي من أعز الأماني وأغلاها فطالما هفت نفسي وتطلعت إلى مشاهدة تلك المعالم والوقوف على المفاخر العربية الإسلامية والمجد العربي المؤثل، وشاء الله أن تتحقق تلك الأمنية، ففي عطلة الربيع (١) اغتنمتها فرصة سيما أن جو الربيع الدافيء وما يحفل به من متعة وبهجة يشجع على ذلك، فاتفقت مع مجموعة من الأصدقاء على تمضية العطلة في أسبانيا، وبعد تهيئة الاستعدادات الواجبة للرحلة من الحصول على تأشيرة دخول وغيرها من مستلزمات الرحلة غادرنا مدينة وهران، وهي المدينة الجزائرية الجميلة والثغر الباسم المطل على شواطىء البحر الأبيض المتوسط.

وتوجهنا منها بطريق السيارات إلى الحدود الجزائرية المغربية حيث وصلنا بعد مسافة قطعناها وهي ١٧٠ كيلو وبعد الإجراءات المعتادة دخلنا الحدود المغربية وتوجهنا إلى مدينة (وجده) إحدى المدن المغربية الكبيرة، ومنها استأنفنا مواصلة السير متوجهين إلى الأندلس، وبعد المرور بعشرات البلدان والقرى المغربية حيث المناظر الطبيعية الخلابة وصلنا إلى مدينة (الناظور) آخر الحدود المغربية، وبعد اجتياز المراكز الأسبانية التي لم يدم انتظارنا أمامها سوى بضع دقائق توجهنا إلى مدينة (مليلية) أولى المدن الأسبانية، وهذه المدينة تقع على شاطىء البحر الأبيض المتوسط بها نشاط تجاري واسع وبها عدد كبير من العرب المغاربة، وبعد زيارة لأهم معالمها التاريخية والحديثة ركبنا البحر قاصدين مدينة (ملقة) مدينة المجد العربي والتي كانت في الماضي عاصمة هامة من عواصم الخلافة ووصلناها بعد رحلة بحرية استغرقت أربع عشرة ساعة استمتعنا خلالها بجمال البحر ومشاهدة أمواجه ومناظره البديعة «وملقة» حاليا مدينة تجارية ضخمة ذات جمال وبهاء، تتوسطها الحدائق الفخمة وتضفي عليها المناظر الطبيعية التي تحيط بها من كل جانب جلالا وروعة، وفي ملقة اندثرت جل المعالم العربية ولم يبق بها شيء يوحي بما كان للعرب والمسلمين من مجد ومعالم سوى القليل ومنها توجهنا إلى مدينة (غرناطة)(٢) ولقد كان الطريق متعبا حيث

---

(١) كانت الرحلة في عام ١٣٨٤ هـ.

لقد كنت وقتها منتدباً للتدريس آنذاك بمدينة وهران بالجزائر في عام ١٣٨٤ هـ.

(٢) والتي يقول شاعرها ابن زمرك:

أبلغ لغرناطة سلامي ... وصف لها عهدي السليم

فلو رعى طيفها منامي ... ما بت في ليلة السليم

المنحنيات المتعددة بداخل الجبال فلا تستطيع السيارة أن تزيد سرعتها أكثر من ٣٠ كيلو، أما جوانب الطريق فهي جميلة وممتعة لدرجة تنسي الإنسان متاعب الطريق، وعند وصولنا غرناطة صادفنا عشرات المرشدين، هذا يعرض عليك فندقا وآخر يتعهد بمرافقتنا في زيارة المعالم والمناطق السياحية ولكم رددت قول الشاعر:

يـا دار غـيـرك الـبلى ومحـاك
يـا ليـت شـعري ما الذى أبلاك

وتوجهنا إلى فندق في داخل المدينة قريبا من قصر الحمراء، وسكان غرناطة طيبون جدا يمتازون باللطف وحسن المعاملة والابتسامة ترتسم على وجوههم ويحبون العرب كما أن ملامح أهلها غالبا أقرب ما تكون إلى السمات والملامح العربية، وتذكرت وأنا أطوف في شوارع غرناطة وفي أحيائها ما كانت تحفل به هذه المدينة من ندوات الأدب ومجالس الشعر، وأعلام البيان وأساطين الفلسفة ورواد المعرفة وما خلفه أولئك العرب من مذاهب فكرية وتراث غزير ونظريات علمية، ولازال الأثر العربي قويا واضحا في حياة الناس وفي صناعاتهم مما يبعث على الاعتزاز بتاريخنا الذي بقي حيا إلى اليوم.

فكم شهدت غرناطة وغيرها من نهضة فكرية متوثبة ونشاط ذهني لامع. ووقفت لحظات وأنا أطوف بالأحياء العربية الباقية حتى الآن وأنتقل بفكري إلى تلك الأيام الزاهرة المجيدة وما بلغه العرب إذ ذاك من شأو رفيع وما كان لذلك من أثر وفعالية في دفع الحضارة التي ملأت الدنيا إشعاعا ونورا. وابتدأنا بزيارة (قصر الحمراء)(١) ووجدنا الزحام عليه شديدا لكثرة الوافدين من مختلف الجنسيات الأوروبية والأمريكية، وعند مداخل القصر لا تستطيع الدخول إلا بعد انتظار حيث ان مئات السياح يلتقطون الصور لدرجة أنك تفرك عينيك كل لحظة لكثرة ما يصيبها من تسليط عدسات التصوير، والأوروبيون بصفة عامة من أكثر السياح اهتماما فكل فرد منهم يتأبط بين ذراعيه عدة كتب إلى جانب قصاصات الصحف والمجلات التي كتبت عن هذا القصر وتاريخه.

ودخلنا القصر وهو قصر شامخ عالي البنيان يقع على ربوة مرتفعة بحيث يطل على مدينة غرناطة وضواحيها وبعد قطع تذكرة الدخول وهي تباع بما يعادل ستة ريالات أخذنا في الطواف بداخل القصر وشاهدنا بوابة القصر الفخمة بأبوابها القديمة ثم غرف القصر وممراته وحدائقه الفخمة ونافورات المياه وقاعات الاستقبال ومجالس الخليفة، ولاتزال النقوش والكتابات والزخارف باقية مثل (لا غالب إلا الله) وغير ذلك من الآيات القرآنية الكريمة والحكم الدينية والأبيات الشعرية، واستمر طوافنا في القصر أكثر من ثلاث ساعات ونحن نخرج من قاعة إلى

---

(١) هذا القصر العجيب كان يوما مصدر القوة في الشرق والغرب وكتبت عنه الكتب والمؤلفات والحكايات مما حمل العدد الكبير من السياح من أوروبا وأمريكا إلى زيارة غرناطة وآثارها.

قاعة ومن حديقة إلى حديقة مما يعطي صورة حية للفن المعماري الإسلامي الذي يدل على المهارة والدقة والبراعة، وفي داخل القصر يوجد العشرات من باعة الصور المتعددة للقصر والتي تنفد بسرعة من جانب المئات من السياح ، وفي القصر اقترب منا شاب أسباني عندما سمعنا نتحدث بالعربية ومد يده لمصافحتنا ودار بيننا وبينه حديث عن القصر وتاريخه ولقد كان على جانب من الثقافة وأخذنا متنقلا بنا بين طوابق القصر ومشاهده الفخمة وقام يقرأ لنا بعض النقوش والكتابات التي بدأت تندثر لدرجة أننا لم نستطع فك حروفها لامحاء الخطوط، وفي القصر أدخلت المصابيح الكهربائية لإضاءته، وكم رددت مع شوقي وأنا أرنو إلى القصر قوله:

يا قصورا نظرتها وهي تقضى

فسكبت الدموع والحق يقضى

ومن القصر خرجنا إلى (جنة العريف) وهي حدائق جميلة مجاورة للقصر تعتبر غاية في الروعة والجمال والتنسيق، ومما يدل على الذوق العربي الأصيل ومما يزيد العربي فخرا أن هؤلاء المئات من السائحين الأجانب تسمعهم وهم يشيدون بالمجد العربي الإسلامي و يبدون دهشتهم لدقة ما في هذا القصر من نقوش وفنون وزخارف، فصدفة التقينا بمجموعة من السياح الفرنسيين فقاموا يتحدثون عن عظمة الفن المعماري عند العرب وأن المسلمين في ذلك العصر يعتبرون ممن أسهموا بنصيب كبير في دفع قافلة الفكر ــ ولا شك أن التقدم العلمي الذي أحرزه أسلافنا العرب في هذه البلاد وفي ظروف كظروفهم يستحق الكثير من التقدير والعناية والإجلال.

وما أكثر ما تغنى الشعراء بالأندلس وأفتنوا في ذلك فوصفوا جمال طبيعتها وحياتها وبطاحها، فهذا ابن هانيء الأندلسي يقول:

يا أهل أندلس لله دركم

ماء وظل وأشجار وأنهار

وما أشد ما زخرت به أشعارهم من رقة وأخيلة وعذوبة وما فاضت به من جمال وجلال ولذة ومتعة إلى جانب ما تحفل به من ناحية فنية وجمالية، ولازالت الأجيال تردد تلك الأشعار التي تعكس بجلاء تلك الحياة التي تصف الأندلس وتتغنى به وتشدو بمباهجه ومفاتنه.. وتصف حياتهم التي كانت مفعمة بالبهجة والرضى في تلك الربوع، وفي أشعارهم تلك عرض واف لما كانت عليه حياتهم ومعارفهم وعلومهم وتقاليدهم وما اتصفوا به من كريم الصفات وجميل العادات وما أثر عنهم من لطائف وطرائف ومساجلات.. وما نقله الرواة عن أحوالهم وشمائلهم وذكريات ولاتهم وقضاتهم وأيامهم..

لقد خلفوا لنا تراثا ضخما كان بمثابة صور ناطقة حية بما كانوا يتميزون به من صفات وخلال وسجايا. إنها ذكريات متى تذكرها المرء أرقت حنايا قلبه وأثارت له الأسى وجعلته

يغرق في لجج من الحسرة واللوعة، ولا أريد أيها القارىء أن أطيل وأترك لخيالي أن يستبد بشيء من وقتك فيجعلني هائما في بحر من الذكريات التي أوحتها طبيعة المكان، فمن الخير أن نتناسى ذلك ونستمر في متابعة الرحلة، ولكنه الإحساس الذاتي والتأمل النفسي فإلى متابعة الرحلة..

ففي مدينة غرناطة قام صديقنا الشاب الأسباني بمرافقتنا لزيارة الأحياء العربية القديمة ومشاهدة بعض البيوت والمعالم الأثرية فتجولنا بعد العصر في تلك الشوارع سائرين بين ممراتها الضيقة ورأينا آبار المياه القديمة، ودار بيننا و بين بعض سكان هذه الأحياء محاورات لطيفة حيث وجدنا منهم استقبالا جميلا وترحيبا لطيفا، ولقد دهشت لمظاهر هذه الحفاوة وحبهم للعرب وحفظهم لبعض الكلمات العربية التي قاموا بترديدها أمامنا وقام بعضهم بفتح بيوتهم لمشاهدتها للتدليل على أنها باقية على التصميم العربي القديم وهي أشبه ما تكون ببعض أحياء مدينة الطائف القديمة..

والعجيب أن أغلب البيوت حتى الحديثة منها في مدينتي قرطبة وغرناطة لاتزال على النمط العربي، فأبواب البيوت توجد على جوانبها مسامير صفر و يتوسط الباب حلقة كبيرة إلى جانب (فتحة) تتوسط الباب تشبه إلى حد ما الأ بواب القديمة في مدينة الرياض..

واستأجرنا عربة يجرها حصان انطلق يجري بنا بسرعة إلى بعض الأماكن القديمة حتى شاهدنا بيوتا مهدمة قديمة قيل لنا انها كانت دورا للقضاء ومدارس للتعليم وغير ذلك، ولقد أوحت إليَّ هذه المناظر القديمة بترديد قول ابن خفاجة الأندلسي:

فإذا تردد في جنابك ناظر
طال اعتبار منك واستعبار
أرض تقاذفت النوى بفطينها
وتمخضت بخرابها الأقدار

وفي المساء شاهدنا في غرناطة احتفالا دينيا أقيم ليلا واستمر حتى آخر الليل ولقد زينت المدينة بأحلى حلة وامتلأت شوارعها بالجماهير.. ونصبت الكراسي في كافة الميادين والطرقات ليجلس عليها المشاهدون، وابتدأ الحفل بعزف قامت به فرقة موسيقية ثم تلاها حملة الطبول، ثم الخيالة تبع ذلك عشرات من الفتيان والفتيات يحملن المشاعل والورود وأغصان الشجر والأعلام، ثم جاءت عربة ضخمة بها نموذج لصورة السيد المسيح من الذهب يحف بها رجال الدين والرهبان ورجال الجيش، ثم صفوف أخرى من الشبان تجللوا لباسا تنكريا لا يبدو منه سوى عيونهم فقط وعلى رؤوسهم لفائف تشبه الطاووس واتجهوا إلى الكنيسة لأداء الصلوات.. وسهر الناس تلك الليلة حتى الصباح، وفي الصباح ودعنا مدينة غرناطة الجميلة ونحن نحمل

أجمل الذكريات قاصدين مدينة قرطبة..

وقبل مغادرتنا مدينة غرناطة آخر ما كان يحتفظ به العرب إبان حكمهم والتي سقطت عام ٨٩٧هـ عرجنا على متحفها الأثري لزيارته والاطلاع على ما يحتويه من آثار ولوحات وقطع، ومن ثم توجهنا إلى مدينة (قرطبة) قاعدة الحضارة الإسلامية الزاهرة ومركز العلم والمعرفة إذ ذاك.

وفي الطريق شاهدنا عشرات القرى التي ذكرتنا بماضيها وذلك بما كنا نلمحه من آثار عربية وأطلال دارسة مما يوحي بمجد قديم، وقد مررنا في الطريق بعشرات المزارع والمناظر الخضراء الجميلة من كروم وزيتون، وبينما نحن نتأمل هذه المناظر بدت لنا معالم قرطبة، وبعد وصولنا ذهبنا للبحث عن الفندق الذي كنا نحمل اسمه، وبعد استراحة قصيرة خرجنا نطوف في شوارعها، وكم لهذه المدينة العريقة في نفوسنا من ذكريات تاريخية رائعة فقد كانت من أعظم المدن الأندلسية وأجملها وكانت حافلة بالمعاهد ودور العلم ومقصد العلماء والشعراء والأدباء.

ومدينة قرطبة أصبحت حاليا مدينة أوروبية ذات شوارع أنيقة وتمتلىء بالمباني الحديثة إلى جانب الأحياء القديمة ذات الدروب الضيقة وهي المجاروة للمسجد الجامع — ولعل من أهم آثارها (جامع قرطبة الشهير) وذهبنا لزيارته وسط ممرات ضيقة ووصلنا (الجامع) الذي عاصر الأيام الذهبية والسنين الزاهرة، وبعد وصولي الجامع أحسست بشيء من الأسى والكآبة وخاصة حينما سرح بي الخيال وتأملت تاريخ هذا الجامع العظيم يوم كان ملتقى العلماء ووجدت آثار الإهمال وتحويله إلى كنائس حاليا، وحينما اجتزنا إلى داخل الجامع بهرنا مما يحويه من روعة البناء وعظيم التصميم ودقة الزخرفة — وتاريخ هذا الجامع يعود إلى عام ١٧٠هـ حينما قام بإنشائه عبدالرحمن الداخل الأموي، وقد أراد عبدالرحمن الداخل أن يكون هذاالجامع من أروع جوامع الأندلس، وقد توفى قبل أن يكمله فأتمه ابنه هشام، ثم قام الخلفاء من بعدهم بتوسعته وإدخال مزيد من الاضافات عليه، ويقول الأستاذ محمد عبدالله عنان في وصفه لهذا الجامع (يشغل مسجد قرطبة مسطحا كبيرا يبلغ طوله مائة وثمانين مترا وعرضه مائة وخمسة وثلاثين مترا وهو أندلسي الطراز والمظهر بمعالمه وأوضاعه ونوافيره وأشجاره).

وللمسجد من قبل تسعة عشر بابا فخمة وقد زين بزخارف عربية جميلة، وتبدو روعة هذا الأثر الإسلامي العظيم للداخل من أول نظرة ويحار البصر في تأمل عقوده وأعمدته العديدة المتقاطعة التي لا تدرك العين نهايتها وتبلغ عقوده في الطول تسعة وعشرين و يبلغ ارتفاع سقفه نحو اثني عشر مترا، ولأول وهلة يشعر المتأمل أنه في قلب مسجد إسلامي ولكنه متى دقق البصر قليلا أدرك في الحال أن المسجد قد استحال إلى كنيسة بل إلى كنائس، فقد عدلت أسقفه على الطراز الكنسي وأزيلت القباب القديمة ما عدا القبة الرئيسية الوسطى وحلت محل قبابه نقوش

نصرانية وأنشئت على طول جوانب الجامع الأربعة من الداخل هياكل لا نهاية لها ونصبت فوقها الصلبان وتماثيل القديسين وصورهم، ولم يترك من جوانبه سوى المحرابين وأحدهما قديم مخرب، وأزيلت جميع الزخارف الإسلامية القديمة ورسمت صور القديسين بين الزخارف، وترجع قصة تشويه مسجد قرطبة الجامع على هذا النحو المؤلم إلى أوائل القرن السادس عشر ذلك أنه لما سقطت قرطبة في يد النصارى ودخلها فاتحها ملك قشتالة أقيم في الجامع قداس شكر واستمر الملوك الأسبان في إدخال تغييرات جزئية في أوضاع الجامع، وقد كان إقامة الهيكل الكبير في وسط الجامع مثار نقد شديد من العلماء الأثريين الغربيين من أسبان وغيرهم، وقد وصفه بعضهم بأنه أشنع عمل همجي ارتكب لتشويهه، وفي عام ١٩٥٣م أزيلت منارة الجامع القديمة وأقيم فوق أنقاضها برج الأجراس الحالي، ولقد حمل العلماء الأثريون وفي مقدمتهم العلماء الأسبان على هذا التشويه لأثر من أجل الآثار الإسلامية ووصفه بعضهم بأنه تدنيس للفن.

ويصف الوزير المغربي محمد بن عبدالوهاب الغساني خلال زيارته لقرطبة عام ١١٠٢هـ هذا الجامع قائلا:

هو مسجد كبير جدا في غاية الإتقان وحسن البناء وبداخله ألف وثلاثمائة وستون سارية كلها من الرخام الأبيض بين كل سارية قوس فوق قوس آخر. وله من الأبواب الآن أربعة عشر بابا وقد سد كثير من الأبواب وغيرها، ومحرابه الإسلامي باق على حاله لم يتغير إلا أنهم جعلوا عليه شباكا من نحاس وطرحوا أمامه صليبا فلم يدخل عليه أحد إلا قبل ذلك الصليب، ولم يزد بداخله ولا بحائطه شيء، ولهذا المسجد صحن كبير جدا مشتمل على خصة ماء في وسطه ويدور بها في سائر الصحن من أشجار النارنج مائة وسبع عشرة شجرة، ويقابل موضع المحراب إلا أنه ليس بغاية الارتفاع كمنارة طليطلة وأشبيلية إلى أن يقول: إن هذا المسجد من أكبر مساجد الدنيا وأعظمها صيتا..

وبعد أن أمضينا وقتا طويلا في جامع قرطبة وشاهدنا ما فيه من روعة وعظمة خرجنا لزيارة القصر المجاور له وهو قصر ضخم بني على الطراز العربي الأندلسي كان مقرا للخلافة— واتجهنا للدخول من مدخله الرئيسي ولا يزال بابه الضخم الكبير محتفظا بقدمه وطابعه الشرقي، وعند مدخل الباب يوجد حراس ومرشدون، وبعد قطع تذكرة الدخول دلفنا إلى ساحة القصر وتجولنا في غرفه وقاعاته التي تبعث رؤيتها على شيء من الحزن والكآبة، فكم شهدت من أيام زاهرة وسيادة وعظمة مجد، وشاهدنا في داخل القاعات ومجالس السفراء والأروقة بعض النقوش العربية إلى جانب التحف التي كان يحتفظ بها الخلفاء، وفي جانب من القصر توجد حديقة ضخمة كبرى تزينها البرك الواسعة والأشجار المتعددة، والخمائل الجميلة.

ولا تزال المياه جارية بين جنباتها، وصدفة التقينا بسائح لبناني فقام يحدثنا عن القصر وعن مياهه فروى على حد تعبيره قائلا: بأن هذه المياه التي تجري هنا لا تزال على مجراها الطبيعي يوم بني

هذا القصر وأنه حتى الآن لم تعرف مصادر المياه وأن المهندسين الأسبان يعترفون بالمهارة للمهندسين العرب القدامى الذين قاموا بجلب هذه المياه واستمرارها إلى اليوم ــ وهو أمر يدعو إلى الفخر والاعتزاز، و بداخل الحديقة توجد أشجار البرتقال بوفرة و وجدنا عشرات السائحين يلتقطون الصور و يستمتعون بجو حديقة القصر الساحرة ونسماتها العليلة .

ومن ثم ذهبنا لمشاهدة القنطرة المجاورة للمسجد الجامع ، وهي كما يقال بناها الرومان وقام بتحسينها وتجديد بنائها حكام الأندلس المسلمون ، وقمنا بعد ذلك بجولة سريعة في داخل قرطبة لمشاهدة الأحياء القديمة التي لا تزال محتفظة بالطابع الأندلسي ورؤية بعض المساجد التي حولت إلى كنائس ، ولكم تذكرت بهذه المناسبة قول أبي البقاء الرندي حين بكى هذه المواطن ورثى هذه الربوع بمرثيته الشهيرة التي كنا نحفظها قديما :

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية
وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم
من عالم قد سما فيها له شأن
وأين حمص وما تحويه من نزه
فنهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان العلوم فما
عسى البقاء إذا لم تبق أركان
يا رب طفل وأم حيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة
والعين باكية والقلب حيران   الــــــخ ..

وحينما رددت هذه الأبيات التفت إليَّ أخ عراقي فقال : أكمل فقلت : أنا لا أحفظ أكثر مما سمعت فأنا من الصنف الذي ينسى ما يحفظه بسرعة ، فقام مكملا هذه القصيدة وتلاوة المزيد من القصائد والأشعار التي تتغنى بمجد هذه البلاد وأيام محنتها وتبين لي بعد ذلك أنه من رواة الشعر وحفظته حيث أمضينا معه وقتا طيبا في مساجلات شعرية ومناقشات فكرية وعلمية بددت ما اعترانا من وجوم وامتعاض .

أما مدينة الزهراء ذات المجد والصيت الواسع التي قام بإنشائها الخليفة عبدالرحمن الناصر فقد

امحت ولم يبق لها إلا بعض أطلال دارسة، وقد كنا نقرأ عنها في التاريخ أنها من أروع المدن وأزهاها وأنه أنفقت الأموال في تشييدها واستمر بناؤها ما يقرب من أربعين عاما ونيفا وأنه جلب لها من الأثاث وأدوات الزينة ما يبهر العقل. وسمعت وأنا في قرطبة أن هناك حفريات للبحث عن آثار هذه المدينة ومعالمها التي ابتلعها الدهر وغمرها النسيان.

ومما قاله ابن زيدون وهو من أعظم شعراء العصر يشيد بالزهراء وروائع ذكرياتها:

خليلي لا فطر يسر ولا أضحى
فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى
لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل
أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا
معاهد لذات وأوطان صبوة
أجلت المعاني في الأماني بها قدحا
ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح
تقضت معانيها مدامعه نزحا
مقاصير ملك أشرقت جنباتها
فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا
يمثل قرطيها لي الوهم جهرة
فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه
إذا عز أن يصدى الفتى فيه أويضحا
هناك الحمام الزرق تندى حفافها
ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا
تعوضت من شدو القيان خلالها
صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا

ولقد رثى الشيخ محي الدين بن عربي الزهراء بأبيات قيل أنه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها وهي:

ديار بأكناف الملاعب تلمع
وما أن بها من ساكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب
فيصمت أحيانا وحينا يرجع

فخاطبت منها طائرا متغردا
له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي
فقال على دهر مضى ليس يرجع

وفي المساء ذهبنا لزيارة بعض الحدائق والمتنزهات الحديثة ورؤية ما تبقى من السور القديم لقرطبة، والتجوال في أهم شوارعها الرئيسية الكبرى ومتاجرها الفخمة وميادينها الأنيقة. وسمعت من بعض الإخوان العراقيين الذين التقيت بهم في قرطبة أنه توجد شوارع صغيرة الحجم تحمل أسماء ابن سينا وابن رشد وغيرهما من الأندلسيين العرب.

وبعد انتهاء زيارتنا لقرطبة قلب الأندلس والتي قيل قديما في وصفها: قرارة أولي الفضل والتقى، ووطن أولي العلم والنهي، وقلب الإقليم وينبوع متفجر العلوم، وبستان وقبة الإسلام، وحضرة الأيام، ودار صواب العقول، وبستان ثمر الخواطر، وبحر درر القرائح، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام البصر، وفرسان النظم، والنثر، وبها أنشئت التألقات الرائعة وصنفت التصنيفات الفائقة.. الخ..

وودعناها بعد أن أمضينا في ربوعها وقتا حافلا بالمتعة الفكرية والعلمية، ومليئا بالفائدة التاريخية، وذهبنا لمحطة القطار للتوجه إلى مدينة مدريد العاصمة.

وبعد أن ودعنا قرطبة عروس الأندلس ومدينة المجد والمعرفة والتي كانوا يقولون عنها قديما إنها كانت من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد. توجهنا صوب العاصمة «مدريد» ــ وأمضينا الليل كله في السير ولم نصل مدريد إلا في الصباح، وقد كنا نلمح في الطريق المدن والقرى المتناثرة ويبدو في تصميم أغلب بيوتها الطابع الأندلسي، وعلى جوانب الطريق كانت المناظر الخضر، الجميلة والغابات والمزارع وأشجار الزيتون المنسقة.

ومدريد من أجمل المدن الأوروبية تمتاز بروعة التنسيق وجمال التصميم في مبانيها وبراعة التخطيط الهندسي وتزخر بالحركة والحيوية والنشاط وتكتظ بالسكان وإلى جانب ما تضفيه ميادينها الفخمة وحدائقها الغن التي تبهرك بحسنها الفتان وتنسيقها البديع من بهاء وفخامة ورواء.

ولقد بقينا أربع ساعات ونحن نبحث عن فندق فأغلب الفنادق مليئة بالنزلاء أو محجوزة للسائحين القادمين... وبعد بحث طويل اهتدينا إلى أحد الفنادق التي وجدنا به مكانا.

ومن أجمل ما في مدريد شارعها الضخم الفسيح الذي يمر بوسط العاصمة وعلى جوانبه المتنزهات والمحلات التجارية والميادين التي تجملها النافورات. وخلال إقامتنا بمدريد تمكنا من زيارةــ لأغلب الأماكن السياحية والمشاهد الأثرية وبعض المتاحف التي تحوي بعض الآثار والزخارف

العربية الإسلامية. ولقد حرصت على زيارة مكتبة مدريد التي سمعت أنها تحفل بالكتب العربية والمخطوطات الأندلسية ولكن ضيق الوقت حال دون تحقيق ذلك.. وأخيرا فإن الديار الأندلسية والبلاد الأسبانية كلها مثار ذكريات للزائر العربي فكلها حضارة ومجد وفن وعمران وما أصدق قول شاعرها المرتبي:

في أرض أندلس تلتذ نعماء
ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس في غيرها بالعيش مقتنع
ولا تقوم بحق الأنس صهباء

مصارعة الثيران:

ولعل من الظواهر التي تلفت نظر السائح في أسبانيا هي مشاهدة مصارعة الثيران، وبعد قطع تذكرة الدخول التي تباع في كل مكان ذهبنا إلى ميدان المصارعة ووجدناه مزدحما بالجماهير ومصوري السينما والتلفزيون والصحافة، ومليئا بأفواج من السائحين الذين جاءوا لمشاهدة هذه اللعبة — وبعد صعوبة تمكنا من الدخول — ولقد كان مشهدا مثيرا — ويبتديء الدور الأول بأن يفتح الباب ويدخل الثور التعيس إلى مكان المصارعة ويأخذ يصول ويجول بقرونه الطويلة ومن ثم يدخل أحد الشبان ممتطيا جوادا وفي يده آلة حادة طويلة ويظل في صراع ومبارزة مع الثور إلى أن يتمكن منه ويغرس في جوفه الآلة التي في يده إلى أن ينزف دمه ومن ثم يعود مرة أخرى، وبعد تسديد الضربتين يخرج الشاب بجواده من الحلبة بحيث يأتي مجموعة من الشبان يأخذون في مصارعة الثور بعد أن يكون قد فقد شيئا من حيويته ونشاطه وضعفت مقاومته، ويستمرون في التلويح له وإثارته — بشارة حمراء وكلما رفعت للثور استشاط غضبا وهياجا واندفاعا ويزداد هجومه وتقوى مقاومته ولكن يتصدى له أحد الشبان فيغرس في جوفه سكينا حادة ويستمر غرس السكاكين في جوفه إلى أن تخور قواه وتتضاءل مقاومته فيخر صريعا ويسقط على الأرض، وبعد سحبه من حلبة المصارعة يدخل ثور آخر وهكذا دواليك تستمر عملية النزال والطعان وقد شهدنا مصرع سبعة من الثيران تمكن بعضها من جرح خمسة من المصارعين واستمر وقت المصارعة ساعة ونصفاً.

والواقع أنه مشهد مؤلم يثير الامتعاض والأسى إذ كيف يهضم هؤلاء تعذيب الحيوان بهذه الصورة البشعة التي تتنافى مع الدين والخلق والذوق؟

ومهما قيل في تبرير ذلك من أنها مورد سياحي هام ومصدر دخل كبير فإن أسلوب المصارعة بهذه الآلات الحادة غير لائق أبدا وتعذيب الحيوان المسكين الذي نادت التعاليم الدينية بالرأفة والرفق به. وخرجت من ميدان المصارعة وأنا أحمل أسوأ الذكريات وأقسى الانطباعات.

وبعد زيارة لأهم معالم مدريد السياحية ذهبنا إلى مدينة «الحسيراس» متوجهين صوب «مضيق جبل طارق» ـ ومن جبل طارق ركبنا البحر قاصدين مدينة «طنجة» الثغر المغربي الباسم حيث تمكنا من زيارة أهم المدن الغربية ـ كالرباط والدار البيضاء ومراكش وفاس ـ ومكناس ووجده وغيرهما. وما تحفل به من آثار إسلامية قديمة.

حقا إن كل ما في الأندلس يملأ قلب العربي اعتزازا بتاريخ أمته كما يملأها إعجابا بتلك الحضارة التي خلفتها أمته هناك في ربوع الأندلس، فإن ما يشاهده المرء مع ملايين السياح من كل شعوب الأرض في قصر الحمراء وفي جامع قرطبة وفي جنة العريف وقصر اشبيلية وطليطلة وملقة وبلنسية وسرقسطة ورندة وطريف وجبل طارق والجزيرة الخضراء وقادس.. الخ. كل ذلك يوحى بالفخر والاعتزاز.

وكانت تلك المدن تزخر بالعديد من الشعراء والعلماء والأدباء والمؤرخين وكانت الثقافة الإسلامية الواسعة الغنية التي فرضت نفسها على الدنيا أجيالا طويلة، وكان العلماء والشعراء والفلاسفة يرحلون إليها من كل قطر للتزود من العلم والثقافة والمعرفة. والحديث عن تاريخ الأندلس وآثاره طويل ولكم تأثرت وأنا أقف في مكان خارج غرناطة ذهب بنا المرشد إليه وقال إنه يدعى «زفرة العربي» وهو المكان الذي وقف فيه أبوعبدالله آخر ملوك غرناطة حيث ألقى نظرة الوداع على الملك المضاع وهناك قالت له أمه البيت المشهور:

ابك مثل النساء ملكا مضاعا
لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولكم رددت هذا البيت وكانت الدموع تنهمر من عينيّ:

أمامي الأمجاد منثورة
قصائداً ما صاغها شاعر



جبل طارق [1]

يقول الشاعر الأندلسي صفوان بن ادريس في وصف جبل طارق:

وطود لو تزاحم منكباه
نظام النجم لانتشروا انتشارا
وقد شمخ الوقار به ولكن
وقار ذو يه علمه الوقارا

رأيتها فرصة طيبة أن أقوم بزيارة لجبل طارق، رغبة في الاطلاع وحرصا على اكتساب المعرفة سيما وهو حافل بالآثار الإسلامية وشهد مرحلة تاريخية هامة ولعب دورا رئيسيا في الفتوحات الإسلامية لأسبانيا وغيرها من البلدان الأوروبية، فقد وصل إليها الجيش العربي الإسلامي بقيادة البطل الشجاع طارق بن زياد فاتح البلاد الأندلسية حين توسم فيه مولاه موسى بن نصير والي افريقية في خلافة الوليد بن عبدالملك قوة العزيمة وصلابة الرأي والقدرة على إدارة الجيش والتأثير فيه، ويحدثنا التاريخ بأنه قد ركب وجنده أربع سفن وكانوا سبعة آلاف رجل من المجاهدين المؤمنين. وعندما علم «لذريق» حاكم أسبانيا بنزول الجيش الإسلامي في الجزيرة الخضراء أعد جيوشه لمنازلة المسلمين وقتالهم ولم يفت ذلك في عضده بل أخذ يفتح القلاع والمدن حتى بلغ جيشه اثني عشر ألفا واستطاع أن يقهر جيش لذريق حيث هجموا على عدوهم وتقدم طارق إلى لذريق فضربه وقتله وحلت الهزيمة بجنده ولقد كان لخطبة طارق الشهيرة أكبر الأثر وأبلغ الحماس حيث حثهم فيها على الجهاد والإيمان.

وفي ذلك تقول الأنشودة الأسبانية مصورة أبلغ تصوير ذلك اليوم وما آلت إليه حالة لذريق:

ومزق جيش لذريق وخارت
بمن فيه العزائم والقلوب
وحين رأى الهزيمة فر يبدو
وحيدا مستكينا لا يؤوب

---

(١) كانت الرحلة في عام ١٣٨٤ هـ.

عليه من ثياب الحرب ثوب
ومن لون الدماء به لهيب
وتحمل كفه سيفا خضيبا
كمنشار أفلته الحروب
فلأمة رأسه فيها شقوق
وخوذة رأسه فيها ثقوب
أطل بقمة فرأى دمارا
له كادت حشاشته تذوب
وأعلاما ممزقة تبدت
وكل بالدم القاني خضيب
رأى قواده فروا وأبقوا
جريحا أو قتيلا لا يجيب
فقال وقد بكى قد كنت ملكا
وماذا ينفع الآن النحيب
ونمت الأمس فوق فراش عز
وفرشي اليوم تجفوه الجنوب
جثا الخدام أمس أمام عرشي
وليس اليوم لي منهم عريب
فيوم ولادتي يوم عبوس
و يوم ولايتي يوم عصيب
فما أشقى نهاري حين أرنو
لشمس الأفق يحجبها المغيب
فعجل أيها الموت المرجى
فمالي اليوم في الدنيا حبيب

وجبل طارق سكانه خليط من الأسبان والإنجليز وقليل من الهنود الذين يمارسون أعمالا تجارية.

وصخرة جبل طارق يشاهدها المرء من مسافة بعيدة جدا فهي مرتفعة فقد كنا نشاهدها بوضوح وجلاء في الأ راضي الأسبانية ، ولا يزال الجبل معروفا ومشهورا باسم جبل طارق و بعد أن تركنا آخر الأ راضي الأسبانية وقفنا عند مركز الدخول صوب الجبل وسط طابور كبير من السائحين الأ ورو بيين والأمريكيين الذين يصلون إلى هذا الجبل أفواجا لزيارة ما فيه من آثار تاريخية ومعالم

وبعد السير بضع دقائق دخلنا مدينة (جبل طارق) وتقع على سفح الجبل وتمتاز بمناظرها الساحرة ـ ومتاجرها الأنيقة وشوارعها النظيفة ، وتزخر بالحركة والنشاط السياحي إلى جانب كونها سوقا دولية حرة تباع فيها البضائع بأزهد الأثمان مما يغري السائح على مضاعفة الشراء ورجوعه خاوي الوفاض ، وللوصول إلى جبل طارق طريقان طريق بحري وهو بالنسبة للقادم من أفريقيا والمغرب العربي وطريق بري بالنسبة للقادم من أسبانيا وأوروبا .

و يوجد بالمدينة سور قديم يرجع تاريخه إلى أيام المسلمين إبان فتوحاتهم إلى جانب بعض الآثار الأندلسية التي أخذت في التلاشي والاندثار . كما يوجد متحف يحتوي على بعض الآثار الإسلامية والواقع أن هذا الجبل غني بالذكريات فقد كان دعامة كبرى للجيوش الإسلامية وعاصما لها من الأخطار التي كانت تحدق بها ، وكان بمثابة همزة الوصل بين أوروبة والمناطق الإسلامية ، وطالما نشبت المعارك وقامت الحروب بين المسلمين والأسبان في محاولات الاستئثار به و بسط النفوذ عليه لكونه ذا أهمية استراتيجية وممراً مائياً حيوياً، وقاعدة حصينة للجيوش مما يدل على **فعاليته**، ولكم تذكرت وأنا أطوف بين شوارع المدينة وخارجها وعلى سفح الجبل خطبة طارق الرائعة حيث يقول لجنده (أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت وإني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوه ولا حملتكم دوني على خطة أرخص متاع فيها النفوس أبدأ بنفسي واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشد قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا فلا ترغبوا بأنفسكم عني فما حظكم فيه بأوفر من حظي وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الخيرات العميمة وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم والله تعالى ولي انجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين واعلموا أني مجيب إلى ما دعوتكم إليه وأني عند ملتقى الحملين حامل بنفسي على طاغية القوم (لذريق) فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معي فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه . وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله)(١) .

(١) و يقول أحد شعراء الأندلس :

لله يا جبل «الفتحين» من جبل معظم القدر في الأجيال مذكور

حقا ما أروع هذه الخطبة فقد كانت حافزا كبيرا للجند ودافعا قو يا للبسالة والتضحية ولقد أورد كثير من المؤرخين القدامي أن سقوط الجبل واستيلاء الأسبان عليه كان عاملا كبيرا في انهزام المسلمين في الأندلس وضياع ملكهم.

و بعد قضاء وقت ممتع في التجوال في هذه المدينة التاريخية ركبنا البحر متوجهين إلى مدينة (طنجة) المرفأ المغربي الجميل مرددا مع الشاعر العربي قوله:

أشـوقـا ولـمـا يمـض لي غير لـيـلـة
فـكـيـف إذا جـد المسير بـنـا شـهـرا



في الولايات المتحدة الأمريكية

بعد رحلة طويلة حطت بنا الطائرة بعد عبورها المحيط ولكم مرّ بي من هاجس وخاطر ونحن فوق المحيط أتذكر فيه اكتشاف قصة البحار الجنوي الأصل كريستوف كولمبس أمريكا حيث توالى بعده المكتشفون وما كان لأسلافنا من دور كبير، فالمسلمون الأندلسيون قدسبقوه إلى البرازيل والبرتغال والأرجنتين حيث ذكروها في أخبارهم باسم الجزيرة الخضراء ومازال للعرب آثار حتى الآن في تلك الديار من قبل وفي أميركا اللاتينية فاسم قرطبة وإيطالية وقرطاجة ولازالت في كل مكان منها أثر.

ووصلنا مطار نيويورك حيث البرد الشديد فاستقبلتنا ببردها ومطرها حيث كانت المدينة الأولى التي نراها ومنظرها من الجو ـ مخيف ـ حيث ناطحات السحاب والعمارات العالية بله السهام المرفوعة فهي مدينة ضخمة.

وبعد إنهاء الإجراءات المعتادة كانت سيارة المكتب الثقافي في انتظارنا، ومضت بنا تطوي الأرض وتجتاز الشوارع والميادين والأحياء حتى استقرت بنا في أحد فنادق نيويورك وسرحت طرفي في جنبات هذه المدينة الكبيرة أتأمل نيويورك المدينة التي طالما سمعت وقرأت عنها، وبعد استراحة في الفندق خرجت مع مجموعة من الرفاق نتجول في أسواقها وميادينها القريبة من الفندق والحياة فيها لا تفتر ليلا ولا نهارا، وبعد تمضية يومين توجهنا صوب ولاية ميتشقان وفي مطار نيويورك يشاهد المرء أفواجا من البشر وأصنافا من الناس ونظاما وترتيبا، وعلى إحدى طائرات البوينج الأمريكية أقلعت بنا الطائرة والساعة سبع من الصباح وكان شريكي في المقعد أمريكيا من ولاية تكساس ذاهبا إلى ولاية ميتشقان فكانت فرصة للحديث وقد لمست منه تجاوبا وسرورا حيث كان متهلل الوجه فكان يشرح لي عن الحياة في أمريكا وتاريخ كل ولاية ونشاطاتها وحاصلاتها، وبعد ساعتين من الطيران هبطنا في مدينة «لانسنق» وكان الجو ممطرا وباردا وفي المطار كان في انتظارنا مجموعة من الإخوان وقد كانوا في المطار منذ الصباح فأوسعونا ترحيبا وإيناسا وصحبونا بسياراتهم إلى فندق جامعة ميتشقان وبقينا تلك الليلة في سمر لطيف ولم يتركوا وسيلة لإكرامنا وتعريفنا بالولاية إلا اتخذوها وقد طرحت عليهم الكثير من الأسئلة والاستفسارات على حد قول الشاعر القديم:

وكثير من السؤال اشتياق
وكثير من رده تعليل

وفي الصباح سرنا كما رسم لنا إلى إدارة الجامعة حيث قابلنا المسؤولين ثم خرجنا إلى معهد اللغة الإنجليزية فزرنا حجر الدراسة واستمعنا إلى مديره وأساتذته، ولقد رأينا في المعهد أعدادا كبيرة من أبناء الوطن العربي ممن حضروا لتحضير الشهادات العليا ولقد امتلأت نفسي سرورا حينما ذهبت إلى المكان المخصص لصلاة الجمعة حيث وجدت عددا كبيرا من الإخوة المسلمين من مختلف الأجناس.

وفي المساء خرجنا في صحبة إخواننا إلى أسواق المدينة ومشاهدة معالمها وميادينها ثم ذهبنا لأحد البنوك المجاورة للجامعة لفتح الحساب وإيداع النقود التي كانت بحوزتنا، وغدونا بعد ذلك إلى خارج المدينة حيث جلسنا في بعض الحدائق والمتنزهات الجميلة وذهبنا لتلبية حفل العشاء الذي أقامه أحد مواطنينا وشبابنا الأفاضل، والتقينا عنده بطائفة من إخواننا الذين يتلقون تعليمهم في هذه الولاية. وبعد قضاء وقت ممتع ودعنا الجميع شاكرين لمضيفنا فضله وهمته وكان الوقت متأخرا قاصدين فندق الجامعة، وفي أثناء الطريق أصيبت سيارتنا بعطب عطل حركتها ولبثنا خمس دقائق في انتظار سيارة عابرة وإذا بسيارة الشرطة تقف بجوارنا وعلى الفور أخذوا في إصلاحها وإضاءة الأنوار لنا وهكذا لقيناً من عنايتهم واهتمامهم ما جعلنا ننسى ما أصابنا من إعياء وتعب.

وفي الصباح غدونا إلى مركز اللغة الإنجليزية للدراسة فيه والتحق كل واحد منا بالمستوى المماثل له وأمضينا في ربوع «ولاية ميتشقان» أياما ممتعة رغم مضايقات الجووالثلج والبرد القارس مما جعل بعض الأيام عصيبة رغم ما وجدناه من إخواننا من أنس ومودة جعل لهم في قلوبنا أثرا لا يمحى وشكرا يتجدد.

ووسط هذه الأجواء فقد تفرق جمعنا ووجه كل واحد للسكن مع أقوام آخرين من غير جنسه وبني جلدته ودينه فإذا بعضنا يشعر بالامتعاض والآخر يحس بالسعادة وفريق بين الرضا وعدم الارتياح، ولقد سرني أن يكون نصيبي السكن مع زميلين من الولايات المتحدة الأمريكية ولقد وجدت منهما في البداية عدم الارتياح وخاصة عندما عرفا أني عربي فأمطروني بكثير من الأسئلة وسرى الخبر بسرعة في أنحاء الجناح الذي نقيم فيه فحضروا زرافات ووحدانا ليتفرجوا ويشاهدوا الضيف الجديد القادم من الشرق الأوسط ومن بلاد العرب، وفيما كنا نتجاذب أطراف الحديث وأجيب على الأسئلة والاستفسارات وبالطبع بلغة ركيكة ضعيفة وإذا بأحد الرفاق من زملائنا يدق الباب فسعدت به حيث ساعدني في فك حصار الأسئلة وقال لي: هلم بنا نبحث عن زملائنا فقلت: وكيف الوصول إليهم فقال: هيا بنا فقد ضقت ذرعا من هؤلاء، فخرجنا نتجول وسط الثلوج والبرد والمطر من عمارة إلى عمارة دون نتيجة مردداً قول الشاعر:

نزجي الأحاديث من سلوى ومن ألم
ومن أمان ذوت فيهن أعمار

فضللنا الطريق حتى أغطش الليل وازداد الظلام، وكلما التفتنا إلى الخلف فإذا المناظر والطرق تمتلىء ثلوجا وصدفة مرت إحدى السيارات الخاصة بأحد طلاب الجامعة فسألناه: أين نحن من مقر سكننا؟ فقال: أنتم على مقربة منه وأرشدنا نحوه.. وسرنا نجتاز الثلوج ولابد من التريث وإلا سقطنا عليه وهكذا مرت الأيام تترى وتتوالى سراعا حتى كأنها ساعات في العمر في بحر الزمان.



ليلة عربية

تضم ولاية أكلاهوما عددا من الطلاب العرب وقد رغبوا في تنظيم ليلة يدعون فيها أساتذتهم وزملاءهم ومن هم يتعاطفون مع العرب و يتحمسون للإسلام، ووجهت رقاع الدعوة إلى أعداد أخرى خارج الولاية، فكان حفلا رائعا يجسد الشرق بجماله وحضارته ومجده التليد وروابطه التاريخية، وما أن حان وقت الحفل حتى شهدنا أعدادا كبيرة من الناس تهرع لحضور هذا الحفل حتى غصت القاعة الكبرى في مدينة نورمان بالمدعوين من الأساتذة والطلاب ورجال العلم والمعرفة والمراكز الإسلامية فكان لقاء كريما ازداد التعارف فيه بين الحضور.

وخلال الحفل ألقيت الكلمات والأناشيد والرقصات الشعبية وقدم الطعام العربي الشرقي اللذيذ وأعقبه دقات طبول وأصداء العرضة النجدية، أجتزيء من القصيدة التي نظمتها في هذه المناسبة وهي طويلة هذه الأبيات:

نحمد الله جات على ما تمنى
يوم في ديار كلاهوما اجتمعنا
قصدنا التحصيل غاية أملنا
والهدف نبغيه رفعة وطنا

.. الخ

وهي قصيدة طويلة قلتها في تلك المناسبة كماقلت مثيلات لها في مناسبات مماثلة أخرى ومازلت أذكر تلك الأهازيج من سامري وهجيني وغيرها مما كنا نردده على ضفاف البحيرة ووسط السهول والتلال، وكم كان لنا فيها من مقيل ومازال في خاطري منظر شبابنا ودوي أغانيهم.

أعود ثانية لوصف حفل الليلة العربية والتي كان لها أحسن وقع في قلوب الحاضرين.

فرأيتها فرصة طيبة فنهضت متحدثا عن مراكز الثقافة الإسلامية في العصور السالفة وكيف كان الشرق منارة تشع فيها أنوار العلم والعرفان، وكيف خبا ذلك النور ثم أردفت القول بهذه القصيدة:

ليلة عربية في الديار الأمريكية

ألقيت هذه القصيدة في قاعة الاحتفالات بجامعة اكلاهوما خلال حفل (الليلة العربية) فجاءت هذه القصيدة تحية لليلة وتعريفا بمفاخر الحضارة والثقافة العربية الإسلامية.

حـي الجـمـيـع بـلـيـلـة عـر بـيـة
جـمـعـت كـرام الـصحـب والأمجاد
يـا لـيـلـة جمـعـتـنـا وسـط ولايـة
بـجـنـوب أمـريـكـا بـلا مـيـعـاد
قـد زانـهـا حسن التعاون والإخاء
هـاجـت مـن الأشجان كل مراد
وغـدت بـذكـرى شـرقـنـا وجماله
وزهـت تـتـيـه بـه على الأنـداد
أيـامـه الـغـر الـوضـاء تـوهـجـت
في خـاطـري وتـضـوعـت بمداد
يـا إخـوتـي في الـضـاد ألـف تحية
تـتـرى مـدى الأ يـام والأ بـعـاد
فـلـئـن تجـمـعـنـا هـنـا في لـيـلـة
فـالـقـصـد تـعـريـف بـكـل بلاد
فـروائـع الأمجـاد قـد كـانـت بـهـا
ومـفـاخـر الـتـاريـخ والاسـعـاد
هـم شـعـلـة الـدنيا ومطلع فجرها
والحـاضر اسـتـهـدى بـهـم والباد
فـلـقـد عـلـوا في الخـافـقين وأوغلوا
بـحـضـارة ممـتـدة الأ وتـاد
لله مـن يـوم تـألـق جمـعـنـا
وزهـا بـروعـة أجمـل الأعـيـاد

يا دوحة المجد الأصيل توهجي
بمفاخر الأجداد والأحفاد
فلكم تألق عالم من أرضنا
وأتى بكل فضيلة وسداد
لكنها مثل الأساطير انطوت
في عصر تكنيك شديد عناد
بالأمس قرطبة و بغداد بها
علم وآداب وحسن وداد
ومهابط الوحي العظيم فتزدهي
بالفخر والاشعاع والرواد
ودمشق دار أمية ومعارف
والنيل يحفل بالسنا الوقاد
والمغرب الأقصى تجلى فاخرا
مما جرى لعقبة وزياد
واليوم نطمح أن نعود لمجدنا
مترسمين مسيرة الأجداد
فملاحم التاريخ توحي أن من
يسعى و يعمل صابرا بجهاد
لابد أن نصل الذي وصلوا به
علم وتخطيط بكل عتاد
أنتم هنا رسل البلاد وفخرها
بل موئل لرجائها ورشاد
إذ بالعزائم والشدائد نرتقي
في كل ميدان بكل وهاد
ونقول للدنيا بكل شموخها
إن المباديء مصدر الإمداد
ولقد رأينا طول فصل كامل
كيف التغير في الولاية باد
ولقد توهج فجرنا في وقفة
باتت تؤرق مضجع الحساد

***

حين انبرى العرب الأ باة بقوة
إذ حطموا ما كان من أطواد
والمسجد الأقصى علينا واجب
تحريره من قبضة الأ وغاد
العز للإسلام دوما خالدا
مهما يكن من بالغ الأصفاد
آي الكتاب تضيء كل دياجر
وتشع بالتبصير للميعاد
إني وجدت الخيرفي دنيا التقى
متنكبا ما كان من أضداد
قد عزنا الإسلام بعد جهالة
لا فرق فيه بأبيض وسواد
يا إخوتي نبراسنا وضياؤنا
الدين والأخلاق نعم الهادي
فتمسكوا بهما على طول المدى
فهما لنا ذخر وخير عماد
وعلى هدى الإسلام نبقى ها هنا
متمسكين بديننا بجلاد
لن أنسى طول الدهر مثل لقائنا
في «نورمن»(١) هي ملتقى القصاد
نسجت جمال الورد في أحيائها
وتمايس الأغصان وسط الواد
وبحيرة بالحسن يا لجمالها
والروض طوقها بحسن اياد
وسنذكر الأ يام وسط ربوعها
بعد افتراق الجمع والآحاد
مرحى بمن قد جاء يحضر حفلنا
من سائر الأ رجاء والأنجاد

* * *

(١) نورمن: إحدى مدن ولاية أوكلاهوما وبها الجامعة.

متكبدا طول الطريق و بعده

ومتاعب«الهاي وي»[1] والترناد[2]

قد جاء من تكساس أو واشنطون

نيومكسيكو ميتشقان ومن نيفاد

ميتشقان فلن أنسى بها أيامنا

تلك الولاية ذكرها بفؤاد

فصلان قد أمضيتها بر بوعها

بلد الثلوج تغطي كل مهاد

وتحية للكل ممن قد أتى

بمشاعر ومحبة للضاد

—***—

ثم انفض الحفل الذي كان مشهدا رائعا يمثل الماضي والحاضر و يعطي صورة طيبة عن العادات والتقاليد، كما كان فرصة للتعريف بالحضارة الإسلامية وتراثها العريق، و بينما كنت في وداع بعض الإخوان وإذا ببعض الأساتذة الأمريكيين يقولون لي: لقد ذكرت قرطبة فما شأنها بالعرب فقلت: هل تقصدون ما شأنها بالأمس أم اليوم؟ فأوضحت لهم تاريخها وما كانت تحفل به من مجد علمي فهي من المدن التي يفيض بذكرها التاريخ الإسلامي وما الحضارة الغربية إلا امتداد طبيعي في مجال تراثنا العلمي ولكن الحاقدين على عظمة الثقافة الإسلامية وصيرورتها ثقافة عالمية هم الذين يكابرون في ذلك.

مدينة نورمان :

هذه المدينة أحدث مدن ولاية أكلاهوما ولقد أمضيت بها فترة من الزمن وهي بلدة هادئة و بها جامعة تضم عشرة آلاف طالب و بها عدد من الطلاب السعوديين.

ولقد حباها الله بالجمال وكنا نخرج في الأمسيات والإجازات إلى ريفها ومتنزهاتها لنرى المزارع والمراعي والمداجن والبساتين والزهور، و بجوارها بحيرة من أروع البحيرات تبعد عن نورمان خمسة عشر كيلو وعلى جوانبها حدائق فواحة بالأ زاهِر والرياض وميادين فسيحة لوقوف السيارات و بجوارها مزارع نشتري منها الأغنام ونذبحها على الطريقة الشرعية.

وعلى ضفاف البحيرة كانت اللقاءات والاجتماعات للجاليات العربية وإقامة الحفلات والدعوات حيث إن المكان واسع فسيح إلى جانب نسمات الصبا ونفح الورود إن هذه المناظر الخلابة الساحرة توحي بالشاعرية وكنا دائما نبحث عن شاعر مبدع، و يا ضيعة الشعر عن

---

(١) الهاي وي: الطريق البري الطويل.

(٢) الترناد: محرفة عن «الترنيدو» ريح عاصف شديد.

مثل ذلك فالحشائش الخضراء تفرش الأرض جميعها وكأنها فرشت ببساط أخضر سندسي وازدانت بألوان من الزهور.

كم جلسنا على ضفاف البحيرة
في سرور و بهجة ومحبه
ومخرنا عبابها بهدوء
وسط موج ورفقة وأحبه

* * *

وكأننا بمنارة «النورمان» قد
أنست مغاني الشعب من بوان
معمورة بمنازل ومصانع
ومزارع و بضائع ألوان

ولقد قمت بجولات عديدة وشاهدت الكثير من الولايات الأمريكية مثل أنديانا.. شيكاغو.. أوهايو.. بنسلفانيا.. تكساس.. واشنطن.. ميزوري.. كاليفورنيا.. أكلاهوما.. واشنطون.. نيو يورك.. وغيرها.

ولقد وجدت الولايات المتحدة الأمريكية باتساعها الجغرافي وتنوع سكانها النازحين من أوروبا وغيرها سر انها مجتمع غريب التركيب، فتنوع أولئك السكان وتلك السلالات البشرية المتعددة جعلها من أكثر بلدان العالم تنوعا بل وغموضا ولكن الطواف بهذه البلاد الشاسعة سيجعل المرء دون شك يزداد خبرة ومعرفة بحياتها فرأيت أمريكا في خيرها وشرها ونعيمها و بؤسها ونظامها وحياتها وشدتها ورخائها وصيفها وشتائها وشبابها وكهولها ومدنها وقراها.. فيها المدن المزدحمة والبلدان المكتظة والمصانع العتيدة والمتاجر الرائعة والثقافات الحديثة والأراضي الخصيبة والأنهار الجارية والبساتين الممتدة وحقول القمح التي لا يبلغ البصر منتهاها والمزارع الواسعة الخصبة وألوان الحضارة المتنوعة والجامعات.. وتتشابه في عاداتها وتقاليدها.

وكما قال البحتري:

فلست تبصر إلا واكفا خضلا
أو يانعا خضرا أوطائرا غردا

ومع ذلك فهناك عدد من الولايات تهب عليها في الشتاء صرصر عاتية تسمى «الترنيدو» وتصحب بمطر غزير وعاصفة هوجاء فتقلع الأشجار وترمي الأحجار وتضرب الجسور وتهدم البيوت وتقطع خطوط الهاتف والماء والكهرباء ويتابع مركز الأنواء الجوية بث التحذير من خلال المذياع والتلفاز، ولكم واجهت تلك العواصف في مدينة نورمن وخلال رحلاتي إلى تكساس ولكن الله كان بنا رحيما.



خواطر حول الجامعات الأمريكية

إن الجامعات تحظى بعناية ورعاية فهي بحق مدن جامعية متكاملة وتتوقف حياتها على الجامعة وطلابها فلا جلبة ولا ضوضاء، والجامعات هناك منها ما هو أهلي ومنها ما هو حكومي تضطلع الدولة بأعبائها ونفقاتها الوفيرة، كما أن المكتبات عامرة بشتى الكتب والمراجع فلا يشعر الطالب والباحث بنقص، ومتى بحث الطالب عن كتاب فلم يجده فإن الحصول عليه يسير من الجامعات والمكتبات الأخرى بزمن قصير علما بأن الكتب تباع بأسعار زهيدة ولا تقتصر الجامعة على مكتبة واحدة بل فيها إلى جانب المكتبة العامة مكتبات للكليات والأقسام الأخرى وقاعات للبحث وغرف للباحثين، ولقد وجدت أن بعض الجامعات في ميتشقان وهارفارد وأنديانا تشتمل مكتباتها على أكثر من ثلاثة ملايين كتاب إلى جانب المخطوطات والمطبوعات الدورية والشهرية وغيرها مما ينشر في مختلف العواصم والمدن الأخرى في العالم ورسائل الماجستير والدكتوراة التي يقدمها الباحثون في العالم بأسره.

أما المتاحف والمعامل والمختبرات فالجامعات مليئة بها و بشكل منسق ودقيق... ويحرص علماء اللغات على تسجيل اللهجات واللغات عن طريق الناطقين بها وخاصة وأن الجامعات بها أعداد من الموفدين من شتى بلدان العالم.

ولقد رغبت في أن أقف على الكثير من المكتبات ودور العلم وعنيت أكثر ما عنيت بزيارة مجموعة من الجامعات ومكتباتها، وكم وددت لو طال بي الزمن لأزور معظم الولايات والوقوف على الكثير من المعالم والمؤسسات الثقافية والفكرية والتربوية، وآمل أن تتاح لي الفرصة لاستكمال ذلك... ولقد أقمت في بداية ذهابي إلى هناك حيث يقيم الطلبة والأساتذة واشتركت في الكثير من مظاهر الحياة فشهدت الكثير من الدروس والمحاضرات وجلست في قاعات البحث والمكتبات وطفت بالمعامل والمختبرات والأندية والملاعب ودعاني البعض لزيارة دورهم ومنازلهم في بعض المدن والقرى. لم تخل تلك اللقاءات والزيارات من فوائد ودروس وذكريات مما ترك في نفسي أثرا وذكريات لا تنسى.

إن معظم الجامعات في أمريكا تحظى باهتمام وعناية إذ يقع الكثير منها في القرى والمناطق الهادئة بعيدة عن المناطق الصناعية وجلبة المصانع وضوضاء المدن مما يوفر للطلاب

الهدوء والطمأنينة وراحة النفس وهدوء البال والإقبال على الدراسة والبحث والتأمل والمذاكرة والدارسة فينقطع الطالب للعلم لا يكاد يشغله شاغل.

ويحضرني بعض الذكريات التي لا تزال صورها ماثلة أمامي، فقد كنت في زيارة لاحدى الجامعات في ولاية أكلاهوما وقد طلب مني أحد الطلاب أن أسجل له بعض الكلمات باللغة العربية الفصحى، ثم طلب مني آخر أن أسجل له بعض الأشعار العربية. ثم فوجئت بأحد الطلاب يقدم نفسه بأنه من معهد الصوتيات و يرغب في تسجيل بعض الكلمات العربية.

ولاشك أن حرصهم على ذلك دليل على اهتمامهم بهذا العلم لأن في ذلك فرصة لهم يستفيد منها الطلاب وعلماء اللغات واللهجات.. ولقد وجدت مجموعة من الطلاب الأتراك والإيرانيين يطلبون مني ذلك قائلين إن ذلك يعينهم على معرفة ودراسة اللغة العربية وإجادة نطقها، ولقد قرأت أن إحدى الجامعات في بلومنتجتن تستعد للتحضير لمؤتمر للهجات و وجهت دعوة مفتوحة للراغبين في ذلك من مختلف أنحاء العالم من علماء اللغات.

إن بعض الجامعات يزيد عدد طلابها عن خمسين ألفا ومع هذا فلا جلبة ولا ضوضاء بل نشاط متجدد ونظام دائم وحركة متواصلة وعمل مستمر وهدوء في الدخول والخروج، ولذا فإن منصب رئيس الجامعة لا يقل عن أكبر منصب في الدولة فهو رفيع الشأن و يتنافس العلماء في الفوز به.

هذه لمحة سريعة وصورة من الحياة الجامعية في أمريكا. والمهم أن نستفيد مما هو جدير بالإفادة منه وليس كل ما في الجامعات حميدا خاصة بالنسبة لنا ولتقاليدنا الإسلامية. ولكن ينبغي أن نأخذ ما يكون حسنا ومفيدا وندع ونتجنب ما يكون ضارا وسيئا، فالجامعات في كل أمة هي مناط الرجاء ومعقد الأمل ووسيلة إلى النهوض والرقي والتقدم بل ومعمل لإعداد الرجال.



الطلاب المسلمون في أمريكا

بمناسبة ذكرى المولد النبوي أقام اتحاد الطلاب المسلمين في أمريكا حفلا بهذه المناسبة وقد وجهت الدعوة إلى عدد كبير من الطلاب والأساتذة وغيرهم، وقد تلقيت دعوة من اللجنة المشرفة على تنظيم هذه المناسبة بالمشاركة في إلقاء كلمة عن الحضارة الإسلامية، وقد لبيت الدعوة لأني رأيتها فرصة ذهبية أن يرتفع صوت الإسلام وسط هذا الزخم الهائل من نشاط الجمعيات المسيحية واليهودية ونشاط الكنيسة ووعاظهم الذين يحاولون أن يجتذبوا إليهم أكبر عدد من شباب المسلمين الذين يتلقون دراساتهم في تلك المجتمعات بأعمق أساليب التأثير كما أن جمعيات الطلاب المسيحيين لها نشاط واسع في الجامعات ولهم نشاطهم ومشروعاتهم الرامية إلى التبشير ونشر الديانة المسيحية، وقد كان ذلك كله من بواعث حماسي لاهتبال هذه الفرصة والمشاركة في ذلك اللقاء الإسلامي الكريم، وقد بدأت الحديث مباركا هذا اللقاء ومرحبا بالحاضرين من أبناء الديانات الأخرى، وتحدثت عن الرسالة الخالدة وأهدافها العادلة وحينما كنت مسترسلا في الحديث عن ذلك ومستدلا بنماذج من تاريخنا وتراثنا ورجالنا إذا بأحد الإخوة ممن اعتنق الإسلام حديثا ينبري قائلا: أرجو أن تحدثنا عن العدالة في الإسلام فقد أفقدتنا بعض الديانات إنسانيتنا وكرامتنا فقلت: إن الإسلام لا تمييز فيه بين أبيض وأسود بل أمة واحدة لا يرتفع و يتعالى صاحب اللون الأبيض على الأسود بل الكل سواء عند الله فلا تمايز إلا بالعمل الصالح «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وفي الحديث «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر» فالاخوة الإسلامية هدف من أهداف الإسلام، وفي كل التشريعات الإسلامية يلمس المرء ذلك واضحا جليا بارزا ففي الصلاة يقف المسلمون جميعا فلا تفاضل بين غني وفقير ولا أسود وأبيض وفي الحج يلبس الناس لباسا واحدا و يؤدون منسكا واحدا وفي الصوم موقف واحد.. ثم أردف أحد الإخوة الحضور بسؤال عن إعطاء أمثلة ونماذج فقلت: لقد كرم رسول الله سلمان الفارسي وصهيباً الرومي و بلالاً الحبشي وكانت لهم المكانة الرفيعة فقد أمر رسول الله بلالا أن يؤذن فوق الكعبة يوم فتح مكة والكعبة لها قدسيتها وعظمتها.

وقد كان رسول الله بارا بالفقراء وكذلك خلفاؤه من بعده يجوعون ليشبع غيرهم و يتفقدون الناس في منازلهم، وأعطيت أمثلة من مواقف عمر الخالدة المشهورة كما أن الكثير من الوفود الإسلامية إلى الملوك والرؤساء كان على رأسهم أمثال عبادة بن الصامت وعطاء ابن

أبي رباح وهما معروفان بشدة سوادهما ولم يمنعهم سوادهم من تسنم المناصب القيادية فالإسلام لم يكن معروفا في تاريخه بالتمييز العنصري بل تطبيق واضح لمبادىء الإخاء والمساواة.

لقد كان للحضارة الإسلامية دور فعال وأثر بارز في مختلف الميادين الفكرية والعلمية والخلقية والأدبية وفي ميدان الطب والفلسفة والعلوم والرياضيات، فقد استيقظت دول أوروبية عديدة على آثار علمائنا ومفكرينا وفلاسفتنا في قرطبة وغرناطة والقيروان و بغداد ودمشق ومكة والمدينة، تلك العواصم كانت تتألق بالعلم والمعرفة ونشطت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية مما هو معروف وواضح، وكتب المستشرقين تمتلىء اعترافا بذلك ومنهم غوستاف لوبون ومسيورنان فمن يرجع إلى كتاباتهما يدرك أن للحضارة الإسلامية فضلاً في التقدم العلمي.

وختاما فإن واجب شباب الإسلام اليوم أن يكونوا على مستوى المسؤولية و يقتدوا بأسلافهم و يقودوا الناس إلى مبادىء الإسلام والحق والخير، وما أجدرنا أن نتأمل قول الله «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور».

و بعد فحسبي من ذلك الحديث الموجز أن ألفت الأنظار إلى ديننا وحضارتنا وإن كنت لم أتمكن من توفية هذا الموضوع حقه ولكن الدقائق المحددة لم تسمح لي بأكثر من ذلك.

وأخيرا لقد انقضت تلك الأيام و بقيت الذكريات:

رعى الله أياما لنا ولياليا
سعينا بها للمجد والدهر مسعد



ساعات في مكتبة الكونجرس

المكتبات في كل أمة عنوان رقيها وتطورها فهي تؤدي أصدق خدمة وأجلها إذ تساهم في تكوين الحاضر والتهيئة للمستقبل، فهي من أهم ركائز المجتمع إذ تتحف عشاق المعرفة ورواد العلم والآداب بينابيع ثرة من المعارف والفوائد والعلوم.. فهي حجر الزاوية في تكوين المواطن القارىء والمجتمع القارىء.. ومكتبة الكونجرس الأمريكي هي أكبر المكتبات في العالم تستأثر باهتمام الزائرين إذ يحرص كل فرد يصل إلى تلك الربوع على زيارتها فقد أصبحت شهرتها تجذب الناس إليها..

ولقد أتيح لي زيارة عدد كبير من المكتبات في مختلف البلدان ولكني لم أشاهد مثيلا لهذه المكتبة، فهي أضخم مكتبة في العالم في نظري. وخلال زيارة لمدينة واشنطن العاصمة ذهبت لزيارة تلك المكتبة وبقيت أتجول في ردهاتها وبين مختلف قاعاتها وخزائن كتبها عدة ساعات.

ولكم بهرت وأنا أشاهد ما تحفل به هذه المكتبة من روائع الحضارات وما تزخر به من شتى الثقافات وما تفيض به من ملايين المجلدات في مختلف ميادين المعرفة وفنون العلم وضروب الآداب والحضارات القديمة والحديثة ومصادر البحث ودوائر المعارف بالإضافة إلى ما حفلت به من مختلف الفهارس العامة والخاصة والمنوعة إلى جانب الموسوعات التي يجد الباحث فيها مبتغاه ويروي ظمأه من هذه المناهل العذبة الوافرة.

ورغم تلك الساعات التي قضيتها في رحاب المكتبة لم أتمكن من مشاهدتها كلها ورؤية كافة جوانبها ففيها يتوافر كل ما يحتاجه الباحث من مصادر البحث والمعرفة نظرا لوجود المراجع، وهي من أهم أسس المكتبات إذ هي عماد المعرفة وركيزتها وهي السبيل الوحيد للاطلاع الواسع على مختلف أنواع الثقافة والمعرفة قديما وحديثاً، ولكي تقوم المكتبة بواجبها على الوجه الأكمل يجب تزويدها بالعديد من المراجع التي تقوم بحفظ المعرفة والثقافة على مر العصور والأجيال.

فالكتب هي السجل الدائم للحضارة والثقافة الإنسانية وستبقى باستمرار ذات أثر بارز وحيوي للوفاء بالاحتياجات العلمية والثقافية والتربوية.

ومن هنا تبدو أهمية مكتبة الكونجرس العلمية فلقد شاهدت العديد من الباحثين والمؤلفين جاءوا من مختلف الولايات وشتى الجامعات ومراكز البحوث إلى جانب العديد من

الطلاب ممن يحضرون رسائل الماجستير والدكتوراة غارقين في بحر من الكتب والنشرات والقصاصات والدوريات... والخرائط والصور واللوحات التوضيحية والشرائح التعليمية والأفلام الناطقة والصامتة إلى غير ذلك من الأجهزة الحديثة التي تعرض بها المواد البصرية والسمعية.. مما جعلها تمتلىء بالرواد والزوار.

ولقد جرى تصميم هذه المكتبة على أحدث طراز في فن البناء وزينت بالصور والرسوم الجميلة إلى جانب الذوق الفني الرفيع في بنائها إذ هي تقع في أبرز مكان بمدينة واشنطن وبجوار مجلس الكونجرس الأمريكي والمحكمة العليا، وتمتاز تلك المنطقة بجمالها الفتان ومناظرها البديعة وخمائلها المبهجة التي تسر الناظرين.

والحديث عن المكتبات حبيب إلى النفس وقريب إلى القلب وكيف لا يكون كذلك وهي أكبر مظاهر التقدم والمقياس الصحيح لرقي الأمة فإذا أردت أن تعرف هل ارتقت أمة أم انحطت وما مقدار هذا الرقي أو الانحطاط فاعرف عدد مكتباتها وقرائها فبمقدار عدد المكتبات وروادها يكون الرقي وعكس ذلك دليل على الضعف والخمول.

ولمكتبة الكونجرس الأمريكية رسالة عظيمة تؤديها، وليس أجدى وأنفع من تقديم العلم والمعرفة بأيسر السبل، فقد شاهدت الآلاف من الشباب يتهافت على دخول المكتبة بدافع من الجد الفائق والنشاط الكبير.. ومع هذه الأعداد الكبيرة من الناس فإن لهذه المكتبة نظاما عاما يخضع له الجميع من رواد وزوار فلا صخب ولا ضجيج ويمنع التصوير داخل المكتبة إلى غير ذلك من التعليمات... ولقد حصلت لي قصة طريفة فقد كنت أحرص على اصطحاب مكينة تصوير سينمائية في كل مكان أذهب لزيارته، وقبيل زيارة المكتبة نفدت كل الأفلام إذ قمت بالتقاط الكثير من الصور في برج واشنطن ومتحفها الكبير وعلى الفور أخذت سيارة أجرة للفندق الذي أقيم فيه وصعدت لغرفتي فبحثت فلم أجد شيئا فذهبت لبعض المحلات فأرشدوني إلى أن الأفلام الخاصة بهذه الآلة توجد في مكان يقع بالقرب من برج واشنطن فذهبت إلى هناك وبعد أن وجدت.. ضالتي فرحت بذلك وتوجهت صوب المكتبة وعند بابها أخبرني أحد الحراس قائلا: ممنوع التصوير داخل المكتبة فقلت: لقد أضعت ساعتين في البحث عن فيلم ألتقط به صورا لهذه المكتبة وتخليدا لزيارتها ولو كنت أعرف ذلك لما أضعت وقتي متنقلا من مكان إلى مكان في وسط شوارع واشنطن الضخمة فقال: إن تعليمات المكتبة تنص على ذلك وبإمكانك ترك المكينة هنا أو اصطحابها معك مع ملاحظة عدم التصوير... والقصد من ذلك كما فهمت هو عدم إزعاج القراء وغير ذلك من الأسباب، لأني دخلت متحف واشنطن فكادت عيناي لا تبصران ما في داخل المتحف نظرا لكثرة التقاط الصور من السائحين والزوار بدرجة تزعج المشاهدين وخاصة أن آلات التصوير تطورت تطورا هائلا وأصبحت عدسات الإضاءة تجهر كل عين وتؤذيها.

ولنعد إلى الحديث عن مكتبة الكونجرس فلقد عهد بتنظيمها إلى أكبر الكفاءات العلمية البارزة هناك فرغم ما تحويه من كتب وموظفين وخبراء فقد نظمت العلاقات المختلفة بين هذه الجماعات العاملة فيها كأنها آلة ميكانيكية متحركة، فليس هناك شيء اسمه من اختصاص الجهة الأخرى فقد أمطرنا المرافق الذي خصصته لنا إدارة المكتبة بوابل منهمر من الأسئلة العامة والخاصة والدقيقة فكانت الإجابات في منتهى السرعة والوضوح سواء منه أو من سواه.

و يعود تاريخ مكتبة الكونجرس لعام ١٨٠٠م و يوجد بها حاليا من الكتب خمسة وثمانون مليونا ما بين كتاب ووثيقة ومخطوطة، أما عدد الكتب فهي ستون مليون كتاب ومائة وعشرون ألفا من مجلدات الجرائد والمجلات الدورية والعامة و٧٥٠ ألف بكرة ميكرو فيلم و٢٠ مليون مخطوطة أكثرها يتعلق بتاريخ أمريكا وحضاراتها و٣ ملايين خارطة و٣ ملايين صورة وشريحة ومئات الآلاف من الاسطوانات الموسيقية وغير الموسيقية والأفلام.

وإلى جانب ما أتاحته للقراء المبصرين فلم تغفل إخوانهم المكفوفين إذ يوجد بها أكثر من مليون ومائتي ألف كتاب مجلد مطبوعا على طريقة برايل إلى جانب الاسطوانات وغيرها الخاصة باستعمال الإخوة المكفوفين.

كما أن عدد موظفيها والعاملين بها أربعة آلاف شخص وقد سألتهم عن أقدم كتاب يوجد بهذه المكتبة الكبيرة فقيل لي إن أقدم كتاب بها يرجع تاريخه إلى ما قبل أربعة آلاف سنة وهو من مصر.

ولقد شاهدت بها كتابين أحدهما من جلد الغنم والآخر من جلد العجل يعود تاريخهما إلى ما قبل خمسمائة عام وقد كتب عليهما الإنجيل. كما توجد قاعة خاصة حفظت بها جميع رسائل قادة أمريكا ورؤسائها منذ أكثر من مائتي عام، ووضعت كل رسالة في داخل زجاجة مقفلة تحمل توقيعاتهم.. ولقد عن لي أن أسأل عن عدد اللغات التي كتبت بها هذه الملايين من الكتب والمجلدات فكانت إجابة مرافقنا عن ذلك سريعة هي مائتان وخمسون لغة قديمة وحديثة تمثل مختلف لغات العالم. وإلى جانب ذلك توجد خمس عشرة قاعة للمطالعة على أحدث طراز وكل قاعة على شكل قبة تحتوي على مختلف الصور والرسوم، و يشاهد في أعلى كل قبة رسوم رائعة خلابة لمختلف الحضارات ومن بينها الحضارة الإسلامية و بها جذع شجرة يعود تاريخه لأكثر من سبعة آلاف سنة على حد تعبير مرافقنا، وهذه الإحصائيات التي أوردتها أخذتها مشافهة عن موظف المكتبة الذي خصصته إدارة المكتبة لمرافقتنا والإجابة على أسئلتنا.

وأمام هذا البحر المتلاطم الزاخر بالعلم والمعرفة والكتب دار في ذهني تساؤل عن الكتاب العربي واللغة العربية وهل تبوأت مكانة لائقة بها في هذه المكتبة العريقة؟ فلا ريب أن الثقافة الإسلامية والعربية بلغت مكانة مرموقة وصيتا ذائعا، وبقيت تلك الكتب لامعة في سماء العلم والمعرفة بما تحمله من آثار جليلة في حقول العلم ورياض الآداب وميادين الفكر قديما وحديثا... فتوجهت بسؤال عن عدد الكتب العربية الموجودة في هذه المكتبة وخلال دقائق جاءت إحصائية بذلك بأن عدد الكتب العربية ثمانون ألف كتاب كما يوجد (٢٥٠) مائتان وخمسون ألف عنوان لكتب ومؤلفات عربية.

ولعل مما يثير الدهشة أن كل ثلاث ثوان يدخل إلى هذه المكتبة كتاب جديد.

وبعد تجوال طويل تركت هذه المكتبة حاملا لها أجمل الذكريات إنها لجديرة بكل إعجاب وخليقة أن تذكر في سجل أوائل المكتبات الحديثة على مر الأجيال.



في الشرق الأقصى

في الساعة العاشرة والنصف مساء يوم الاثنين ٤/ ١/ ١٣٩٩ هـ غادرت مطار الظهران على طائرة البوينج الكورية متوجها إلى سيول عاصمة كوريا الجنوبية ضمن الوفد السعودي وقد أخبرتنا مضيفة الطائرة بأننا سوف نرتفع على بعد ٢٧ ألف قدم وسنهبط في الصباح في مدينة بانكوك عاصمة تايلاند للتزود بالوقود ومن ثم استئناف الرحلة إلى كوريا وفترة الرحلة ثمان عشرة ساعة بالتمام والكمال فالتفت إلى أحد الزملاء قائلا: ستكون الرحلة شاقة وهل سنبقى هذه الفترة الطويلة بين طيات الغيوم والسحب وهل صحيح ما قالته المضيفة؟ فقال: نعم فقد سبق أن ذهبت في رحلة مماثلة وقال مازحا: ستكون الرحلة أطول من الساعات التي حددتها المضيفة، وهكذا بقينا معلقين في الجو طوال الليل وكانت العواصف على أشدها فنحن نتجه للشرق الأقصى وإلى بلاد لا نعرفها وفيها الكثير من الجبال والبراكين والبحار.. ومضت الطائرة تشق أجواز الفضاء في هدوء مهيب تلهب في الذهن الخيالات الكثيرة، ومرت شتى الخواطر في ذهني وعاد بي الخاطر متذكرا المكتشف الأول للطيران العالم المسلم عباس بن فرناس رغم ادعاءات البعض من المؤرخين الذين يغيظهم أن يكون المخترع الأول عربيا ومسلما.. نعم فقد أعطي أولئك سر اختراع الطائرة. ورحت أسائل نفسي لو نجح عباس في محاولته كيف سيكون وضع الطيران في العصر الحاضر؟. وخلال تلك الأفكار التي كنت أناقش فيها أحد رفاق الرحلة وكان النوم يغالبه بسرعة جاءت المضيفة الكورية وكانت في غاية النشاط وتمرق في الممشى كمروق السهم وتغدق علينا بنظراتها لمعرفة ماذا نريد.. فهي قد اعتادت هذا الأسلوب من الحياة وقد تجد في ذلك متعة وراحة.

وبعد انصراف الهزيع الأول من الليل استأذنتنا في إطفاء الأنوار ليتسنى لمن يريد النوم أن ينام هادئا، وأحضرت ما يشبه النظارة السوداء لنضعها على عيوننا أو لنعصب بها عيوننا ولكنها ناعمة ورقيقة ولا يتسرب من خلالها الضوء لينعم النائم بالهدوء والأحلام السعيدة ولكن كيف لي ذلك فأنا من الناس الذين لا يعرف النوم سبيلا إلى أعينهم في الاسفار سواء في الطائرات أو السيارات وأحمد الله على ذلك، فبقيت وحدي بعد أن نام الرفاق أردد قصيدة امرىء القيس في مناجاته لليل:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي
بصبح وما الاصباح منك بأمثل

وغير ذلك من القصائد والأشعار.. ولم يطرد عني تلك الوساوس في الليل الدامس الرهيب إلا انبثاق إشعاع الفجر حيث نهضت لتأدية صلاة الفجر، ولكم شعرت بالراحة والسكينة بعد ذلك و بقيت أتأمل في قدرة الخالق وأردد قول الله تعالى (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) وأخذت أشاهد هذا الكون العظيم من ثقب نافذة الطائرة الذي هو آية من آيات الله، وكنا نعبر أرض تايلاند الخضراء حتى أشرفنا على العاصمة بانكوك ونظرت لساعتي فإذا بالتوقيت حسب بلادنا الخامسة صباحا وحينما هبطت في المطار فرنوت للساعة المعلقة في قاعة الإنتظار فوجدتها العاشرة والنصف صباحا...

غادرنا بانكوك بعد أن أمضينا فترة من الراحة في حدود ٤٥ دقيقة، ولم نستطع خلالها أن نستريح، حيث كانت مكبرات الصوت تتوالى في نداءاتها تعلن قيام الرحلات والإشعار عن وصول الرحلات القادمة، ومطار بانكوك مطار دولي كبير، كما أن قاعة الإنتظار تحوي أسواقا حرة للبيع، وفيما نحن نتجول بين جنبات المعارض ونشاهد ما فيها من التحف والهدايا وأنواع البضائع المختلفة، وإذا بأحد الإخوان يربت على كتفي قائلا: أسرع فقد صعد الركاب للطائرة، وهلم بنا، فذهبنا مسرعين نحو الحافلة التي جرت بنا نحو باب الطائرة، و بعد لحظة أقلعت الطائرة مواصلة رحلتها نحو كوريا طوال يوم كامل، ووصلنا سيول العاصمة في تمام الساعة السابعة مساء بتوقيت سيول وكان الجو ممطرا والبرد قارساً، ودرجة الحرارة ٢ تحت الصفر، فكان المناخ بارداً جداً، وكان في استقبال الوفد عدد من المسؤولين الكوريين، وسعادة السفير السعودي، و بعد استراحة قصيرة في المطار انطلقت بنا السيارة متوجهين نحو الفندق وسط وابل من المطر، وكنت أشاهد الناس في الشوارع يجرون بكل قوة وعزيمة وتصميم. و بحركات سريعة خفيفة؛ فالمطر بالنسبة لهم شيء عادي، كما أن البرد كذلك، رغم أجسامهم النحيلة، وحينما خرجت من السيارة الدافئة متجها نحو باب الفندق إذا بأصابع يدي تكاد أن تجمد من شدة البرد، ولقد كان المرافق الكوري يتكلم لي بلغة ثلاثة أرباعها كوري، وجزء منها انجليزي، حينما كنا نعبر شوارع العاصمة، ورغم أني لا أعرف كلمة واحدة من اللغة الكورية، فقد كنت أكتفي بهز رأسي حينما يتطلع إليَّ في انتظار الإجابة، لقد حرصت قبيل سفري أن أدون بعض الكلمات في مفكرتي حيث أخذتها من بعض الأخوة الكوريين العاملين لدينا، ورصدت مجموعة من الكلمات، وكنت متباهياً بجمع هذه الألفاظ مما سيساعدني في عملية المخاطبة والتفاهم.. وحينما صعدت لغرفتي وفتشت حقيبتي وتحسست جميع جوانبها أدركت أني قد نسيت تلك المفكرة التي أمضيت ساعات في جمع تلك الكلمات وتبو يبها وتنظيمها..

ولقد كنت أحرص دائما قبيل سفري لأي بلد أن أستعلم عن عاداتها وتقاليدها ومناخها وتراثها وما إلى ذلك، مما ينبغي أن يلم به المرء و يعني به. وأعتقد أن هناك مثلا قديما يقول: عندما تكون في بلاد جديدة احرص على معرفة عاداتها وتقاليدها لتسهل عليك الحياة فيها،

ورحم الله أسلافنا من الرحالة الذين جابوا الفيافي والقفار وتنقلوا بين الجبال والبحار والوهاد، وداروا حول العالم في سفن شراعية ومراكب بطيئة ومحيطات مجهولة، وكانوا يدونون معلوماتهم و يصطحبون كتبهم و يصبرون على الحر والبرد، والجوع والعطش.. ورحم الله أسلافنا الذين وصلوا إلى هذه الديار في الزمن الماضي فقد جاء في كتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبة أن بعض التجار المسلمين وصلوا إلى كوريا.

لقد أتيح لنا في هذه الرحلة التعرف على الكثير من النشاطات الصناعية والثقافية ومشاريع الإسكان والصناعات الإستراتيجية فهم يعملون بلا كلل ويحرصون على ما فاتهم من أسباب الحروب فلقد أصيبت بلادهم بحروب طاحنة كانت نتائجها الخراب والدمار، ومع ذلك استطاع الكوريون الجنوبيون أن يعملوا بجد وحزم و يصمدوا أمام تلك المصاعب فأخذوا يضاعفون العمل و يتسابقون في ميدانه، فدوام العمل لديهم أكثر من عشر ساعات وقد حصدوا بالفعل نتائج المثابرة والتصميم والعمل المتواصل الجاد، وقد تجسد ذلك في هذه النهضة والتطور الاقتصادي والزراعي في مختلف المجالات، علما بأن كوريا تتكون من عدة جزر يبلغ مجموعها كما سمعته منهم ٣٥٠٠ جزيرة. وعدد السكان يتراوح بين ٣٧ مليونا إلى أربعين مليونا.

ولقد كان لزيادة ساعات العمل لديهم مردود اقتصادي كبير حققوا من خلاله معدلات في الزيادة والإنتاج و بذلك تحسن مستواهم الاقتصادي فالمسألة مسألة صبر وتضحية وعزيمة.

إن العاصمة «سيول» مدينة واسعة كبيرة و يبلغ سكانها سبعة ملايين نسمة والشيء اللافت للنظر أنك لا تحس بالازدحام والتكدس والاختناق الموجود في بعض العواصم ولا تسمع للأبواق صوتا كما لم ألاحظ ضغطا أو تزاحما في عملية المرور، ولعل ذلك يعود إلى تخطيط وتصميم المدينة فهي مصممة بشكل هندسي جميل كما أن أحياءها غير ملتصق بعضها ببعض فهناك مسافات تفصل بعضها عن بعض.

لقد تجولنا في شوارع العاصمة ودخلنا الكثير من المعارض والمتاجر تحت الأرض والشيء اللافت للنظر سرعة الناس وهم يجرون في الشوارع و يتحركون بخفة ورشاقة ولاشك أن خفة أجسامهم وعدم ترهلها مما يساعد على الحركة والنشاط كما أنهم لا يأكلون كثيرا وقد سألت الكثيرين ممن التقيت بهم عن ذلك فقالوا: إننا نأكل بمقدار محدد ونتجنب الدهنيات و بالفعل فقد لاحظت أطباق الأرز دون سمن كما يستعملون الثوم بكثرة وقد حكى لي أحد الإخوان قائلا: إن اليابانيين أصبحوا يحسدون الكوريين على رشاقة أجسامهم وخفتها فصاروا يحذون حذوهم في تناول كميات من الثوم إلى جانب تناولهم لكميات من حبوب وشراب «الجنسون» وهو أشبه بالشاي الأخضر وهو من خلاصات الأعشاب المتنوعة كما فهمت منهم، وهو منتشر بشكل واسع فكلما دخلنا متجرا أو معرضا عرضوا علينا كميات منه ونصحونا بشرائه قائلين:

سوف ترون فيه الفائدة الصحية إلى غير ذلك من أساليب الدعاية والتأثير وقد حدثونا قائلين إن عمر الشجرة يصل إلى أربع سنوات لكي يعود إنتاجها من جديد كما أن المطر والرياح يؤثران عليها ، والعجيب أن هذه الشجرة منتشرة في الشرق الأقصى كله حيث رأينا ذلك في الصين والفلبين وتايلاند وكلهم يستعملونه وتدر عليهم أرباحا هائلة ولدى البائعين أساليب شتى في اجتذاب الزبون ولديهم طرق عجيبة في طريقة عرض السلع و بيعها ويحضرون ما تريده في سرعة مذهلة ، وكلما سألت عن شيء قالوا إنه موجود لدينا وخاصة عندما تكون غريبا فإنهم يتنافسون في اجتذابك وجعلك لا تخرج من المعرض إلا وقد اشتريت بعض الهدايا ، وكانوا يغالون في الأسعار ولابد من المفاصلة والأخذ والرد والتشدد إذ أن الرجل الطيب يقع فريسة لأولئك البائعين .

والواقع أن هذه الأيام القليلة قد أعطتني حصيلة طيبة هذه الانطباعات السريعة التي أكتبها وهي مجرد انطباعات شخصية لا تعدو أن تكون بمثابة ذكرى متواضعة للأيام التي أمضيتها في تلك البلاد بل هي ملامح مما علق في الذاكرة من مشاهد ومواقف قد تكون في بعض الأحيان طرائف .

وأحسب أن القارىء الكريم سيجد بين فصولها ما يمتعه وبطبيعة الحال فالقارىء محب وتواق إلى الاستطلاع ومعرفة أحوال الأمم والبلاد وخاصة حينما تكون ذات أسلوب خفيف .

ولنعد لاستئناف فصول الرحلة فقد وجهت لنا دعوات إلى تناول الوجبات في المطاعم الكورية التقليدية على طريقة الضيافة الكورية الأصيلة ، وعند الدخول لتلك المطاعم لابد من خلع الأحذية واستبدالها بنوع آخر يكون ناعما ، ولقد فرشت الأرض بالخشب الناعم والجلوس أمام مناضد قصيرة جدا تكاد تلامس الأرض و يكون الجلوس على وسائد ناعمة ويحضرون الطعام بمختلف ألوانه وأنواعه ، ومذاق الأكل يتميز بروائح طيبة من كثرة ما يحتويه من البهارات وأغلبه حار جدا ، كما أن هناك مضيفين يساعدون على تقديم الأكل واختيار ما يكون مناسبا وموافقا لمزاج الشخص ، وقد كانت الفلافل كثيرة والأسماك أنواع شتى منها الحار والبارد والمقلي والنيء إنها أشكال وألوان لم نعرفها ولم نشاهدها ، ولقد التفت إلى أخي عبدالرحمن البيز القائم بأعمال سفارتنا هناك استفسر منه عن هذه المأكولات فقام مشكورا بالشرح والإيضاح لكل الأنواع التي قدمت لنا ، وكان بها خبيرا لطول مقامه ومعرفته بهذه الأصناف . ولقد كانت تلك الأنواع من الأشياء الممتازة والمفضلة لديهم ولكنها لم تكن مفضلة لدي فبقيت التقط من هنا وهناك لقيمات يسيرات خاصة وأن الفلافل والتوابل مليئة بها تلك المائدة وأنا من النوع الذي لا يطيق أكل الحوار.

وخرجنا من المطعم بعد أن غمرونا بلطفهم ووداعتهم وحسن ضيافتهم واجتزنا شوارع

العاصمة التي كانت جميلة ونظيفة ومنسقة تطل عليها عمارات كبيرة ومعارض تجارية جذابة الشكل.

ذهبت مع مجموعة من الإخوان للتجول في شوارع العاصمة، وكانت أشكالنا وسحنتنا تدل على أننا غرباء فكانوا ينادوننا لدخول محلاتهم وشراء البضائع المعروضة فيها، ويخيل للبعض من شدة ملاحقته لنا أننا صيد سمين يجب أن يمسك به وألا يتركه للآخرين فكانوا يغالون في أسعار البضائع التي يعرضونها علينا. ولابد من المفاصلة معهم والتشدد مما يجعل الرجل الطيب يقع فريسة لهم، ولقد اشتريت من أحد المحلات أحجارا كريمة وعند فحصها لدى خبير في ذلك في عاصمة أخرى تبين أنها تقليدية ولا تساوي شيئا، وأعتقد أن ذلك موجود في كثير من عواصم بلدان الشرق الأقصى، فلابد أن يكون المرء على جانب من الحذر والدقة حين شراء الهدايا والحاجــات لأن التقليد كثير والمصانع جاهزة لعمل أي شيء، وعلى سبيل المثال فقد سألت عن مسبحة تماثل المسبحة التي كانت في يدي وقد طلب مني أحد أصحاب المحلات أن أعطيه إياها ويحضرها غدا مع أنواع شبيهة بها، و بالفعل وجدنا عشرات المسابح قد أحضرت و بكل دقة، ولقد لاحظت ذلك في كل من بانكوك وهونج كونج فهم يصنعون كل شيء حتى ثيابنا العربية أخذوها وعادوا بمثلها في اليوم الثاني مخيطة و بشكل دقيق؟.

وهكذا أمضينا أياما جميلة في كوريا ولعل من أحسن الانطباعات التي تركت في نفوسنا أثرا طيبا هو حرصهم على الوقت والاستفادة منه وتنظيمه بشكل يعود بالمصلحة، فلا تجد من يمشي بعد الساعة الثانية عشرة ليلا حيث تطبيق نظام حظر التجول الساري تطبيقه منذ مدة طويلة ومازالوا ملتزمين به، وقد كان عاملا كبيرا في مساعدتهم على تنظيم الوقت وزيادة الإنتاج والعمل والعطاء، وحين أخبرني أحد الاخوان بذلك كنت أظنه مازحا وقد روي لي قصصا كثيرة وطريفة لزوار كثيرين من العالم العربي يأتون إلى هنا دون أن يكون لديهم علم بنظام التجول ليلا فيدركهم الوقت فيضطرون للمبيت في المكان الذي كانوا فيه سواء كان مطعما أو متنزها أو زيارة صديق أو سوى ذلك، ومن خلال نافذة غرفتي في الفندق حرصت على مشاهدة الشوارع بعد الثانية عشرة فوجدتها بالفعل مقفرة وخالية تماما من الناس حتى الساعة الرابعة صباحا حيث يستيقظون مبكرين ويجرون بسرعة إلى أعمالهم ومصانعهم..



في الفلبين

.. ودعنا سيول وتوجهنا إلى مانيلا عاصمة الفلبين في الساعة الثامنة صباحا من يوم الأحد وبعد إنهاء إجراءات السفر توجهنا صوب طائرة البوينج الفلبينية مودعين أصدقاءنا الكوريين الذين ابتسموا لنا قائلين: مع السلامة، وصعدت للطائرة وجلست بين رجلين أحدهما فلبيني والآخر من تايلاند. فكانت فرصة للحديث معهما حول بلديهما وتعريفهما ببلدي، ولقد حدثني الفلبيني عن بلاده وأن بها ٧٠٠٠ سبعة آلاف جزيرة، ثم جاءت مضيفة الطائرة تسألنا عما نريد أن نشرب، فقلت: عصير برتقال فاستغربا لهذا الطلب، فقالت المضيفة: إن لدينا مشروبات أخرى والتفت إليّ التايلاندي قائلا: إن المشروبات هنا مجانا، فأخبرتهم بأني مسلم والمسلم لا يجوز له أن يحتسي المشروبات الروحية.. فبدا عليهما الدهشة فكانت فرصة للحديث عن الإسلام وقواعده وأسرار تشريعاته، والحكم العظيمة التي يتضمنها التحريم، والمصالح المترتبة على ذلك، وقد جاملاني فطلبا عصير برتقال، وقد سألت الفلبيني عن الإخوان المسلمين في الفلبين، وكم عددهم، وما هي مناطقهم؟ وقد تبين لي أنه مسيحي كاثوليكي ومتعصب لمسيحيته، حيث قال: إن المسلمين قلة وليس لهم شأن، فقلت: ليست العبرة بالكم، وإنما بالكيف، ورغم قلتهم فقد استطاعوا بعون الله وتأييده أن يواجهوا تحديات طويلة، وصمدوا بفضل نصر الله لهم، ثم تحدثنا عن اللغات التي يتكلم بها الفلبينيون، فقال: إنها تزيد عن سبعين لغة، كما أن بلاده تضم أكثر من خمسة عشر ألف نوع من الزهور والورود، وبها من الطيور ما لا يوجد في العالم كله، وهكذا استمرت الرحلة ثلاث ساعات ونصف حتى وصلنا إلى مانيلا العاصمة، حيث أضيئت الأنوار في الطائرة لحزم المقاعد والاستعداد للهبوط، واهتزت الطائرة بعنف حيث كانت ترتفع وتهبط حتى نزلت في مطار العاصمة، وكان الجو دافئا وحارا، وقد كنا منذ ساعات في كوريا نرتعد من شدة البرد، وبعد انتهاء الاجراءات في المطار والخروج من بوابة المطار تجمع حولنا أصحاب سيارات الأجرة، حتى جاء شاب طويل القامة فنهرهم وقال: إن لدي سيارة أمريكية ومكيفة فانتظروني لإحضارها، وفجأة وقف بسيارته أمامنا وأخبرناه بالفندق الذي نود النزول حيث حجزنا فيه من مكتب استعلامات المطار، وقد كان الطريق ١٢ كيلو تقريبا، وكان السائق طيبا إذ لم يكن فضوليا وثرثارا كعادة السائقين الآخرين الذين نقابلهم، فكان صامتا لا يتكلم حتى نسأله، ووصلنا الفندق وكان على جانب من الفخامة والروعة حيث شلالات المياه الصناعية وقاعات الجلوس الجميلة على جوانبها، وصعدنا لغرفنا نلتمس الراحة والهدوء..

إن الفلبين بلاد واسعة تضم ألوف الجزر وقد أخذت اسمها من الملك فيليب الثاني أحد ملوك أسبانيا، فقد دخلها الأسبان مع البرتغاليين الذين حكموا هذه الجزر وأقاموا فيها ولقد استقر الأسبان فيها ولا تزال اللغة الأسبانية والكثير من العادات والتقاليد الأسبانية شائعة كما أن الكثير من أسماء الشوارع والمطاعم والمدن تحمل الأسماء الأسبانية إلى جانب أن دين الدولة مسيحي كاثوليكي وقد نقله الأسبان، وتكاد تكون الفلبين هي الدولة المسيحية الوحيدة في شرق آسيا، ولقد حرصت على زيارة معالم مانيلا ومناطقها السياحية عبر شركات السياحة ولقد كان الجو لطيفا والسماء ملبدة بالغيوم والسحب مع سقوط مطر خفيف ولقد أمضيت في هذه الرحلات عدة ساعات تجولنا خلالها على مختلف معالم المدينة. و يطلقون على مانيلا جوهرة المحيط، كما قمنا بزيارة لمتاحفها ومناطقها الأثرية وأحيائها القديمة وضواحيها المجاورة كما شاهدنا الحي الصيني وقصور الأسبان.

كما أن الصينيين يمثلون جالية كبيرة ولهم مطاعمهم وتقاليدهم كما قمنا بجولة على شاطىء المدينة وميناتها الكبير وعدنا إلى الفندق وقد فاتنا موعد الغداء حيث أغلق مطعم الفندق أبوابه، فخرجنا نبحث عن مطعم قريب من الفندق وصدفة التقينا بأحد الإخوان السعوديين ففرحنا به وابتهج بوجودنا حيث كان وحيدا وكانت خبرته بالمدينة واسعة فهو يتردد على مانيلا منذ مدة للتعاقد مع العمال فذهبنا سو يا إلى مطعم هندي وتناولنا الغداء فيه وقد عرف أصحاب المطعم بأننا عرب فحيونا بعبارة السلام عليكم، وتبين أنهم لا يعرفون من اللغة العر بية سوى هذه العبارة ومع ذلك فقد كان لهذه التحية وقع في نفوسنا وإن كانوا لا يشاركوننا في العاطفة الدينية حيث عرفت أنهم غير مسلمين فقلت لصاحبي: ألا يوجد مطعم يملكه مسلمون نذهب إليه؟ فأفاد بعدم وجود ذلك، وفي اليوم الثاني قمنا برحلة أخرى لبعض متاحف المدينة وحدائقها ومتنزهاتها وضواحيها...

كانت رحلتنا ضمن وفد سياحي ومع شركة سياحية أخرى وقد بدأت الرحلة بالمرور على بعض متاحف العاصمة وقصور الأسبان القديمة، ولقد لاحظت أن المرشدة وهي بالطبع مسيحية كاثوليكية لم تشر في شرحها إلى أي شيء عن تاريخ الإسلام والمسلمين في هذه البلاد مما يدل على التعصب وعدم الاكتراث والاهتمام بهم فدفعتني الغيرة الإسلامية والعاطفة الدينية إلى عدم السكوت على موقف كهذا ولابد من لفت النظر فبادرت بطرح سؤالين عن تاريخ الإسلام والمسلمين هنا ورجوتها أي المرشدة الإجابة عبر الميكرفون. ثم أردفت قائلا: أيهما أسبق إلى هذه البلاد المسلمون أم الأسبان فالمعروف تاريخيا وعلميا أن المسلمين نقلوا الإسلام إلى جزر الجنوب؟ فامتعض وجهها وارتبكت في إجابتها وقالت: أنت تعرف تاريخ بلادنا فقلت: نعم وعليكم ألا تقفوا موقفا معاديا للإسلام فتهملوا واقع المسلمين وتاريخهم وتراثهم وقصدي من ذلك أن يكون الإنصاف رائدكم فأنتم تلتقون يوميا بمئات السياح وعليكم كمكاتب سياحية أن تقولوا الحقيقة

لهم وذكر تاريخ الإسلام والمسلمين خلال استعراضكم للنواحي التاريخية، وأخيرا أبدت شكرها لهذه الملاحظات وقالت: في رحلا تك القادمة معنا سوف تكون راضيا وستسمع ما يسرك فقلت: كونوا دائما أوفياء للحق والقيم والتاريخ، وفي المساء زارنا في الفندق بعض الإخوان فخرجنا سو يا نتجول في ميادين المدينة ومشاهدة أسواقها ومبانيها وكانت الأسواق ممتلئة بالناس والبضائع وقد ساعدنا لطف الجو على الحركة والتجوال وشراء بعض الحاجـات والتحف الجميلة مما تشتهر به الفلبين، ولقد تمكنا من الطواف على مختلف الشوارع الرئيسية ولقد لاحظنا أن الأسعار رخيصة جدا مما يدفع الإنسان و يغريه بالشراء فالحرير والأصواف والأحذية كلها تباع بأسعار رخيصة جدا مما جعلنا نشتري كثيرا وفي النهاية نتركه في الفندق...

تلقينا دعوة من أحد الإخوان السعوديين بتناول طعام الغداء، في إحدى الضواحي الجميلة وكان الجو لطيفا فذهبنا إلى هناك حيث الخضرة والأشجار الوارفة والهواء العليل، فمدينة مانيلا تقع على شاطىء البحر وفي منطقة كلها خضراء، كما أن مناظر الأ رياف والقرى تبدو خضراء فأمضينا وقتا ممتعا وسط الأشجار والغابات ومنابع المياه ورأينا أطباقا شتى من أنواع الأسماك مما تشتهر به الفلبين، وفي المساء عدنا أدارجنا صوب العاصمة وقد سألني سائق السيارة ونحن في الطريق: وهل يوجد في بلادكم مثل هذه المناظر؟ فقلت له: نعم ففي أجزاء من بلادنا مناظر رائعة وكلما نزل المطر تحولت صحراؤنا إلى مناظر خلابة ومشاهد فاتنة، وأثناء عودتنا مررنا بشارع ديوي على خليج مانيلا فرأينا الأنوار تتلألأ وأضيئت الأنوار أمام واجهات المحلات بشكل يلفت النظر فسألت عن ذلك فقالوا: إن ذلك استعدادا للاحتفال بأعياد الميلاد ورأس السنة ووضعت شجرة الميلاد كما يقولون أمام واجهات المحلات فنزلنا نتمشى على أقدامنا رغبة في الفسحة والنزهة وممارسة رياضتنا المفضلة «المشي» ولكن الرطوبة الشديدة تنغص على المرء الاستمرار في السير إلى جانب الازدحام الشديد بالناس كالبضائع بعضها فوق بعض وكان الناس ينظرون إلينا على أننا أناس من جنس آخر، فكان الباعة يلاحقوننا وأصحاب التاكسيات يتزاحمون حولنا وعند ناصية أحد الشوارع أوقفنا سيارة أجرة طلبنا من سائقها أن ينطلق بنا نحو الفندق ووسط زحام السيارات والمشاة وصلنا الفندق وصعدنا إلى قمته في الطابق الحادي والعشرين لتناول طعام العشاء ومشاهدة جوهرة المحيط تتلألأ بأنوارها وتزدهي بجمالها وشاطئها البديع الذي يمتلىء بالسفن والزوارق البخارية.. والناس هنا في الفلبين يمتازون بهدوء الأعصاب والفئة التي تعمل في الفنادق تختلف عن الفئات الأخرى ولعل ذلك يعود إلى كثرة مخالطتهم للأجانب وطمعا في الكسب وإعطاء الصورة الطيبة.. في الصباح الباكر نزلت إلى قاعة الفندق وصدفة جلس بقربي شخص يبدو من ملامحه أنه فلبيني ثم جاء شخص آخر وإذا به ينادي على اسمه «عمر» فالتفت إليه مبتسما ومحييا فقدمت له اسمي فقام بكل حماس مرحبا ومحييا فإذا به أحد إخواننا المسلمين الفلبينيين.. حقا ما أعظم رابطة الإسلام فسرعان ما كنا

اخوانا وأصدقاء، فذهب يخبر أصدقاءه وكان فرحا مسرورا ومبتهجا، حضروا وجلسنا نتحدث أحاديث الاخوة الإسلامية وكان أحدهم على جانب من الثقافة والمعرفة بأصول الفقه والتفسير وشديد الاحترام للحديث النبوي وكان متألما لواقع المسلمين وحريصا على أن يعود لهم مجدهم وعزهم، فشكرتهم على شعورهم الإسلامي الكريم وعلى محافظتهم على دينهم وتمسكهم بشعائر الإسلام كما قال تعالى «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة وهم راكعون» إلى غير ذلك مما وجدت نفسي مدفوعا إلى أهمية الحديث فيه إلى جانب الابتعاد عن البدع والخرافات التي أفسدت على الكثير من المسلمين دينهم، ثم انصرفنا حيث كنت على موعد مع أحد مكاتب الطيران لترتيب الحجز والسفر...

في الصباح الباكر نزلت من غرفتي مبكرا وأخذت أتجول بين جنبات الفندق وقاعاته وغرفه خاصة عندما وجدت قاعة الطعام لم يحن بعد موعد افتتاحها فدخلت إحدى الغرف من دون قصد فرأيت فصلا دراسيا كبيرا و بجوار الباب قسيس فاستأذنته في الدخول وسألته عن هذا الفصل الدراسي فقال: إن هؤلاء الطلاب يحضرون في الأسبوع مرتين للدراسة والتزود بالمعرفة لأصول وقواعد الدين المسيحي فإن كنت تريد الفائدة فعليك بتقديم طلب للالتحاق بهذا الفصل، ثم انبرى يتحدث بحماس عن المسيحية والتبشير وما إلى ذلك فأخبرته باني مسلم يعتز بدينه و يفتخر و يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذهل الرجل وسمع على ما يبدو كلاما لم يسمعه من قبل فقال لي: إن لدينا أحد المبشرين الذين قرأوا عن الإسلام و يعرفون من أموره كثيرا فهل تحب أن تلتقي به فقلت: مرحبا بالجميع فقال: انتظر قليلا ،وأحضر لي كرسيا وطلب مني الجلوس عليه ريثما يعود بعد قليل ثم عاد وقد تأبط مجموعة من الكتب فنظرت إليها فوجدتها تحتوي على هذيان المبشرين فقلت له: احتفظ به لديك فإنه لا حاجة لي بمثلها فقال لي: أقرأها ففيها فوائد كثيرة قلت: سبق أن قرأتها فلم أجد بها تلك الفوائد التي تشير إليها، ثم جاء أحدالذين كان بداخل الفصل يلقي الدرس وقدم نفسه ويحمل شهادة الدكتوراة في الفلسفة وكان إيطاليا وقال إنه منتدب من قبل الفاتيكان لإلقاء المحاضرات وكان على جانب من الدماثة والثقافة فقال إنه قرأ كثيرا عن الإسلام، وأنه في حاجة إلى المزيد من الكتب والقراءة والاحتكاك برجال الثقافة الإسلامية ثم أخذ يتحدث عن الثقافة الإغريقية واللا تينية وإبداعاتها في مجالات الفكر والفن والعمران ثم قلت له :وهل كان لها تأثير في الأخلاق والروح؟ فقال: نعم وفي المسيحية والإسلام عناصر مشتركة عديدة وقد تختلف بعض الوسائل أحيانا فتحدثت إليه بإيجاز عن الفكر الإسلامي وما خلفه من ثقافة إسلامية زاهرة ظهرت على أثرها النهضة الأ وربية بينما الفكر المسيحي كان محصورا فقط في الأديرة والكنيسة وقد دخل الكثير من العلماء والمفكرين الأسبان في الإسلام بكل قناعة وحرية وحتى في إيطاليا جارة أسبانيا كان المسيحيون يتلقفون الثقافة الإسلامية و يأتون للدراسة في غرناطة وقرطبة ودخلوا في الإسلام، وكان رجال

الدين المسيحيين من ذوي الأفق الضيق يؤلمهم ذلك و يرمون بني قومهم بالكفر والزندقة وأنت بالطبع كرجل مثقف تعرف ذلك التاريخ فالإسلام لا يضع قيوداً أبدا على رجاله ومفكريه فالتسامح الموجود في الإسلام لا نجد له مثيلا في الديانات الأخرى فالمؤرخ الأوروبي المعروف غوستاف لوبون يقول «لم أجد في العالم فاتحا أرحم من المسلمين» فالإسلام هو شريعة الحق والعدل والرحمة. ثم قال: إنك تفاخر بالإسلام كثيرا فقلت: وهل قلت غير الحق والصدق ولا أستغرب منكم المكابرة في مثل ذلك فقد انتشرت دعوة الإسلام لأنها دعوة الحق وهو أكبر مما تتصورون وتظنون ورددت قول الله تعالى «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون». «قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد».

ثم طرح عليّ بعد ذلك أسئلة عن رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم فقلت: إن رسالته كافة للناس كما قال تعالى: «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا» «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا .محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل» وفي نهاية حواري آثرت أن التقي به في المساء لاستكمال نقاشنا وتزويده بما طلبه وهو المصحف المترجم ولكنه اتصل بي هاتفيا معتذرا لارتباطه بمحاضرة في الجامعة وتركت له طلبه لدى مكتب استعلامات الفندق.

وحينما كنت في شرق آسيا وفي مدينة مانيلا عاصمة الفلبين التقيت بأستاذ جامعي مثقف ولكنه يدين بغير الإسلام وكان يجهل الكثير عن الإسلام وحقائقه وعن الفكر الإسلامي ومعطياته... وقد وصف الأدب العربي بأنه أدب متخلف و يفقد صفة المعاصرة.

فقلت له: إنك لم تقرأ شيئا من آثار الفكر الإسلامي ولا تعرف شيئا عن آثار الأمة الإسلامية وإن ما سمعته منك هو تكرار لأقوال أعداء ممن يعادون الإسلام عداء شديدا وباعتبارك أستاذ جامعي يؤمن بأهمية البحث عن الحقيقة من مصادرها فكان الأولى بك أن تدرك ذلك وتتصل بأساتذة الثقافة الإسلامية وبالمختصين في فهم الإسلام وما ينطوي عليه من مبادىء وقيم وسلوك وتشريع وثقافة ومعرفة وفكر، فلو حاولت ذلك لوجدت أنك أمام نور وضياء من المعرفة ليس له نظير.

إن الثقافة الإسلامية ذات جذور عميقة تحوي المعارف والثقافات وصفحات التاريخ تجسد ذلك إذ أن الكثير من العلماء أصبحت لهم شهرة عالمية والكثير من الجامعات في الشرق والغرب لديها المعجمات التي تحفل بذكر أولئك الأسلاف فمن لا يعرف الغزالي وابن رشد وابن سينا؟ والفارابي والجاحظ والمسعودي وابن خلدون وابن حنبل والشافعي والخوارزمي وابن الهيثم؟ فالتراث الإسلامي متألق بالفكر والمعرفة المتجددة وعدم الإنغلاق أو الجمود وإنه لأمر مؤسف أن

يظل الجهل بالإسلام حيث أصبحت المعرفة متاحة في هذا العصر.

و بالنسبة للأدب العربي وإطلاق صفة التخلف عليه فهذا الحكم جائر وغير لائق من أستاذ جامعي ينبغي أن يكون معاصرا ومتفاعلا مع المعرفة والآداب العالمية الأخرى يتابع عطاءها ومسيرتها وإنتاجها فماذا تعرف عن الأدب العربي؟ فحكى لي عن كتاب ألف ليلة وليلة.. فقلت له: إن الأدب العربي قديما كان يمثل فكر الأمم بأجمعها في مختلف عصور الحضارة حيث كان يمثل الحكمة والثقافة حتى الأمم التي تدين بغير الإسلام كانوا يتتلمذون عليه و يأخذون من معارفه وفوائده حيث كانت الأمم توفد أبناءها لتلقي العلم والأدب في مراكز الثقافة فيأخذون الأدب والمعرفة ثم يعودون إلى بلادهم لينشروا فيها ما أخذوه وما تعلموه في عواصم الإسلام في غرناطة وقرطبة والقيروان وغيرها من عواصم البلاد الإسلامية لقد كان الأدب العربي أدبا مزدهرا كل الازدهار.

وهكذا أمضينا ساعات فيها عن الفكر الإسلامي والشعر العربي والأدب العربي حينما وجدت محدثي محبا للاستزادة ومتطلعا إلى المعرفة بحقائق الإسلام.. وعن الحضارة الإسلامية التي أبدعها المسلمون، و بعد مضي يومين على لقائنا وجدت رسالة منه تتضمن اهتمامه بدراسة الكتب الإسلامية الموجودة في مكتبة الجامعة وأسأل الله له الهداية، إن الكثير من أعداء الإسلام يشوهونه لينفروا الناس وإن واجب المسلمين أن يكونوا قدوة حسنة في كل مكان سلوكا وتعاملا لتصبح الأمة الإسلامية كما أرادها الله خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتدعو إلى الهدى ولنبذل في ذلك كل جهد للتعريف بالإسلام وتصحيح الفهم الخاطىء والمعلومات الكاذبة على شريعته والصور المشوهة للمنتمين إليه.



سنغافورة

إنها جزيرة جميلة تمتاز بالهدوء والنظافة والاناقة والجمال و يعيش أهلها في منتهى النشاط والحيوية والأمن والاستقرار، وعدد سكانها يربو على مليوني نسمة وقد وصلناها في المساء حيث كانت تتلألأ بالأنوار، وبعد أن وصلنا الفندق وأخذنا قسطا من الراحة خرجنا للنزهة بين أحيائها التجارية وميادينها الواسعة الجميلة ومما يلفت النظر أن الفنادق في هذه الجزيرة تمتلىء بأفواج شتى من السائحين من مختلف أنحاء العالم والحصول على غرفة في أحد الفنادق يحتاج إلى حجز مسبق، وأغلب سكانها من الصينيين فهم الذين يملكون أغلب الفنادق والمحلات التجارية وغيرها، وفي إحدى قاعات الفندق الذي كنا نقطنه تحدثت إلى أحد سكان هذه الجزيرة حيث حكى قصة بداية تأسيسها فقد اشتراها أحد العسكريين الإنجليز أيام قوة الإمبراطورية الإنجليزية بمبلغ من الجنيهات منذ ٢٠٠ عام لتكون قاعدة للجيش البريطاني ثم تحولت إلى ميناء حر لمختلف البضائع ومازالت إلى اليوم سوقا حرا لشتى المعروضات والبيع والتجارة.

والمحلات التجارية فيها كبيرة جدا و يباع فيها مختلف ألوان البضائع من شتى بلدان العالم و بأسعار رخيصة.. ومن المستحيل أن يخرج المرء من أي محل دون أن يشتري فالصينيون قوم بارعون في الأساليب التجارية فهم يقنعون المرء أن يشتري منهم بشتى الوسائل والأساليب التجارية و بأي عملة كانت معك، فقد اشتريت أشياء كثيرة ودفعت ثمنها بالريال السعودي.. ووجدت في بعض المحلات والمطاعم من يدفع لي باقي الحساب بالريال السعودي.. وعلى شاطىء الجزيرة الجميل كانت الفسحة مريحة يتجمع الناس من مختلف الجنسيات أمام باعة الأطعمة والخضروات فحشرت نفسي وسطهم وأخذت أتذوق بعض تلك الأطعمة ولكنها لم ترق لي ولكن لابد من دفع الثمن وذهبنا للتجول في الأحياء الصينية حيث العادات والتقاليد والمطاعم وكل شيء باللغة الصينية.

وقد قمنا برحلة بحرية فركبنا البحر وأخذنا نحوم ونتجول وسط الأمواج ومشاهدة الجزيرة. حقا إن سنغافورة جزيرة جميلة ومنظمة وأنيقة.

و بعد أن مشينا في شوارعها ومررنا بمعالمها وميادينها وملأنا عيوننا بمناظرها انطلقنا عند شروق الشمس، وفي الطائرة جلست بجوار النافذة وشددت الحزام وأخرجت كتابا عن هذه الجزيرة ولم أكد أقلب في الكتاب حتى جاءت المضيفة ومدت يدها بطبق صغير يحتوي على قطعة قطن ولبان، وبدأت الطائرة تهتز وكان ماء المحيط أزرق قاتما وشاهدنا مئات الجزر و بقينا نستمتع بتلك المناظر حتى نزلت الطائرة على الأرض في مطار بانكوك.

في الباكستان

وبعد تمضية بعض الوقت في بانكوك وفي تمام الساعة الرابعة صباحا غادرت عاصمة تايلاند «بانكوك» متوجها صوب كراتشي، وكنت طوال الليل قد أمضيته في المطار حيث تأخر إقلاع الطائرة كما أن الطائرة التي كنت قد حجزت عليها في الساعة العاشرة مساء قد ألغيت رحلتها ومع هذا فلم أجزع أو أتبرم بل رددت قول الله تعالى «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم» ولحسن الحظ فقد التقيت في المطار بمجموعات من أبناء الوطن العربي ممن حضروا الدورة الرياضية في بانكوك وكان منهم اللاعب والحكم والمشجع والإعلامي، وقد كان الانتظار طويلا رغم المناقشات والمسامرات حول الرياضة وشجونها ورغم أني لا أهوى الكرة ولا أفهم أحكامها طول الوقت ولكن دفعني إلى مناقشة ومسامرة هؤلاء وسؤالهم عن ذلك وتزجية الوقت مرددا قول الرصافي:

الليـل قـد طـال على مـن شكـا
وصـار لـيلا باردا مظلمـــا

وفي الساعة الرابعة صباحا اكتمل عدد الركاب وصعدنا للطائرة الباكستانية من نوع «بوينج» واستقلت من المطار فأخذت طريقها في البداية في جو هادىء وسماء صافية ولكن بعد مدة بدأت تعلو وتهبط وكأننا في جو مصارعة ثم هدأت بعد مضي ساعة ونصف، وكان خط الرحلة طويلا حيث مكثنا ست ساعات بعدها هبطت في مطار كراتشي فنزل بعض ركاب الطائرة وآخرون واصلوا رحلتهم إلى البحرين...

وطوال الرحلة كنت استعرض في ذهني قصة قيام الباكستان واستقلالها وما قام به محمد علي جناح وإخوانه وهم يمارسون ببطولات نادرة قضية الاستقلال، ويخرجون بانتصار يشرف المسلمين جميعا، وكذا كنت أستعرض في ذهني أشعار محمد اقبال وقصائده التي جاءت مشرقة وضيئة وتتلألأ عليها أنوار الأدب الإسلامي العميق.. ومن ذلك قوله:

لا تـرى المسلم يحويـه عطـن
تـائـه في قـلـبـه كـل وطن
أمـة مـلء الـبـرايـا أسـسـاً
وضـع الـتـوحـيد فـيـهـا أسـسا

أسبغ الفضل علينا وهدى
صير الأرض جميعا مسجدا

وكما يقول داعيا إلى الرابطة الإسلامية:

يا أمين السر من أم الكتاب
هل إلى وحدة ماضينا اياب

لقد كان اقبال شاعرا فيلسوفا وقف شعره على بعث مجد الإسلام وعلى البحث عن جواهر ونفائس التراث الإسلامي الخالد وشرح آثاره ومبادئه. وكلما قرأت شعر اقبال وجدته مشتملا على نبضات حية وشعور قوي متدفق بالروح الإسلامي وحافل بالروعة والاعتزاز بالمجد الإسلامي وتنبيه المسلمين إلى ما يتعرضون له من مطامع وما يحدق بهم من مخاطر. ورحم الله الدكتور عبدالوهاب عزام الذي ترجم شعر اقبال ونقله إلى اللغة العربية ولكم التقيت به في جامعة الرياض يوم كان مسؤولا بها ومحاضرا فكان يتحدث لنا بإعجاب عن هذا الشاعر و يستشهد بشعره كثيرا و يقول اقبال مصورا حالة هذا العصر:

عصرنا هذا ملء بالفتن
طبعه خلق شرور ومحن
محفل الماضين فيه مقفر
صوحت فيه حياة تنضر

ولكم سررت كثيراً عندما رأيت البعض من الاخوة الباكستانيين في الطائرة يقرأ القرآن والمضيفة تردد «السلام عليكم ورحمة الله» و بعد كل كلمة تقول «إن شاء الله» فتلك ظاهرة حميدة أعجبت بها كثيرا، كما أني لم أشاهد توزيع الخمور على الركاب وعندما خرج مساعد الطيار وكان باكستانيا من غرفة القيادة ووقف في صدر الطائرة حييته على الفور وسر كثيرا عندما علم أني سعودي، ووجدت الرجل على جانب من الخلق والدين.. وفي مطار كراتشي كان الركاب يتزاحمون للحصول على حقائبهم بطريقة فوضو ية، و بعد الانتهاء من الإجراءات خرجت للبحث عن سيارة أجرة إلى فندق (مهران) فتزاحم الناس حولي، وكان موقفا طريفا والتفت أبحث عن حقيبتي فوجدتها في سيارة أجرة بينما كنت قد ركبت إحدى السيارات فطلبت من سائق السيارة الذي أخذ حقيبتي أن يعيدها للسيارة التي ركبتها أما عباءتي وحقيبتي اليدو ية فقد كانت في سيارة ثالثة فأعدتها وتوجهت صوب الفندق وانطلق كالسهم والسير بالطبع عندهم على الشمال، ووصلنا إلى الفندق وقد أخبرني السائق بأنه لا يوجد مكان حيث سألهم في الصباح حينما كان معه بعض القادمين وأن هناك فندقا آخر، ولكني أصررت

على الذهاب لهذا الفندق حيث كنت أحمل اسمه في مفكرتي ، وقد تواعدت مع أحد الأصدقاء في مانيلا على الاجتماع فيه وحينما وصلت الفندق وجدت منهم كل بشاشة وترحيب وكانت الغرف كثيرة وكانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحا وكنت لم أنم طوال الليلة الماضية ، وكعادتي فإن النوم لا يجد سبيلا إلى عيني في الطائرة أو السيارة فصعدت للغرفة وأخذت في نوم عميق لم يكدرعليَّ صفاءه إلا رنين الهاتف حيث تلقيت مكالمة من أحد الأصدقاء في بانكوك . . و بعد ذلك نهضت وسألت مكتب الاستعلامات في الفندق عن وجود رحلات سياحية جماعية فلم أجد فأخذت سيارة من سيارات الأجرة التابعة للفندق حيث ذهبت أستطلع معالم المدينة وأسواقها الرئيسية وميادينها وزيارة مكتباتها ومساجدها و بعض دور العلم فيها إلى غير ذلك من الجولات السريعة الخفيفة ، وفي اليوم الثاني قمت برحلة لضواحي كراتشي ولشاطئها الجميل ، وتمتاز ضواحيها بمناظر طبيعية جميلة فكلها ترتدي ثوبا أخضر وقد كان الجو معتدلا وجميلا كما أن شاطئها الجميل يداعب المدينة و يضفي عليها جمالا وروعة . ثم توجهت للجامع الكبير لأداء صلاة الجمعة والتقيت بعد الصلاة بمجموعة طيبة من العلماء الأفاضل ممن هم على جانب من علم الشريعة الإسلامية وإن كان حظهم من اللغة العربية ضعيفا ، وقد كانت أرض المسجد كلها مفروشة بالمرمر ثم قمت بزيارة لمتحفها المسمى على غرار تاج محل ويحتوي على الآثار القديمة و يدخله أعداد كبيرة من الرواد من مختلف الأجناس والعناصر كما قمت بزيارة لحديقة الحيوانات وهي مليئة بالحيوانات المتنوعة .

وكذا القصور القديمة التي كان يسكنها ملوك الهند ولقد مرت على تلك القصور والآثار أمم وحضارات ومدنيات مما يحكي عهود الغابرين من مئات السنين .

و بعد فالباكستان أرض خصيبة كغيرها من بلدان العالم الإسلامي تملك مقومات الثروات الظاهرة والمطمورة في ترابه .

حقيقة إن الدول الإسلامية تمتلك ما يمكنها من تحقيق الإكتفاء الذاتي حيث إنها متكاملة من جميع النواحي ، ولقد كانت فرصة طيبة خلال وجودي في كراتشي انعقاد مؤتمر الغرف التجارية الإسلامية وكنت أتابع ما يكتب و ينشر حول هذا الموضوع حيث اختيرت كراتشي مقرا للغرفة الإسلامية التجارية وذلك لتنظيم الإنتاج والاستفادة من الطاقات الكاملة للعالم الإسلامي وإنتاج كل احتياجات العالم الإسلامي صناعيا وزراعيا متى نظمت تنظيما متكاملا .

أعاد الله لأمة الإسلام أمجادها وعزتها وحضارتها .



في اليونان

استأثر أدب الرحلات باهتمام كثير من الأدباء والمثقفين وعني به أعلام بارزون عبر أطوار التاريخ قديما وحديثا لما للرحلات من فائدة ومتعة بل هي نافذة رحبة يطل منها القارىء على أنماط متنوعة وأمم وعادات وتقاليد وتاريخ وآداب . كما أنها مصدر للمؤرخ وللجغرافي وللاجتماعي .

وهذه الرحلة قمت بها إلى اليونان بلاد الإغريق ذات الحضارة والتاريخ .

في فجر يوم الجمعة الموافق ١٤/ ٤/ ١٤٠٣ هـ أقلعت بنا طائرة البو ينج السعودية ، وقد أعلن قائد الطائرة عن الأماكن التي سنطير فوقها في طريقنا إلى اليونان ، وأنه يمكننا أن نرى بعض تلك الأماكن وسنطير على ارتفاع ٣١ ألف قدم .

وخلال الطيران لمحنا الكثير من الوديان والرياض والمزارع الخضراء والحقول الواسعة والتي ينطبق عليها قول الشاعر :

الأرض قـد كـسـيـت رداء أخـضـرا
والـطـل يـنـثـر في ربـاهـا جـوهـرا

و بعد أن اجتزنا تلك المرابع وجاست الطائرة بين السحاب ، ألقيت برأسي فوق مساندها الوثيرة وأرخيت أهدابي ، ورحت أسترجع شريط الذاكرة وما وعته من تاريخ تلك الديار العريقة التي عرفناها عبر ترجمات العرب الأوائل .

ففي عصر ما قبل التاريخ انتشرت حضارة بلاد الاغريق ، وخاصة حضارة كريت ، وفي القرن الرابع عشر قبل الميلاد قضت ميكيني على كريت واحتلت مكانها ، ومن ثم عرفت الحضارة في شبه جزيرة البلقان باسم الحضارة الميكينية .

وقد قرأنا أن الظروف الجغرافية في بلاد الإغريق قد فرضت ظهور تكتلات اقتصادية صغيرة ، ودويلات اغريقية تطاحنت فيما بينها ، وكان أهمها أثينا وأسبرطة ، وإن كان هذا الانقسام ، وهذه المنافسة ، قد ساعدا على قيام الحضارة الإغريقية ، وتقدمها ، ونضوج التفكير بين الإغريق .

وتذكرت أن اليونان لم يعرف وحدته الكاملة إلا بعد أن فقد الإغريق حريتهم وخضعوا للرومان (١٤٦ ق.م) .

اهتزت الطائرة هزة خفيفة أوقفت لدي شريط الذكريات ، فنظرت من النافذة ، فإذا البحر

الأحمر وقد انبسط تحت جناحينا، فتأملته وغاصت عيناي في زرقته الداكنة، ومع تلاطم السحب مع تلك الزرقة الداكنة تناثرت في خيالي ذكريات الماضي المجيد حيث كانت الفتوحات الإسلامية والحملات البحرية قد وصلت إلى البحر الأبيض بقيادة الخليفة معاوية بن أبي سفيان.

ثم طاف بي الخيال نحو تطلع الإغريق إلى البحر لاستكمال ما كان يعز عليهم الحصول عليه في بلادهم، ولذلك ترك البحر في نفوسهم أثرا.

وشهدت القرون الثامن والسابع والسادس قبل الميلاد انتشار الإغريق في البحار وأنشأوا على شواطىء البحر الأسود والبسفور وبحر مرمرة والدردنيل وترافيا وصقلية وجنوب فرنسا وشمال افريقيا، عددا كبيرا من المستعمرات، كانت مدنا حرة لا تربطها عادة بأمهاتها إلا روابط الدين والحضارة.

وعبرت ثقافة الإغريق مع قوافلهم، فمدرسة بلاد الإغريق قد ازدهر فيها عدد كبير من أبرز الشعراء والكتاب، ومن منا لا يذكر أيسخولوس وسوفوكليس وبوربيدس دعائم الدراما الإغريقية التى نقلها إلى العربية طه حسين وصقر خفاجة وغيرهم، وعندما أخذت قوة أثينا تضمحل احتفظ بمجدها الأدبي كل من أرسطو وأديستوفان.

ففي العصر الهلنيستي، حين كانت بلاد الإغريق نهباً للحروب والاضطرابات والفاقة، انتشرت الحضارة الإغريقية في ربوع الشرق والغرب، بل أصبحت عواصم الممالك التي قامت على أنقاض الامبراطورية المقدونية أهم مراكز الحضارة الإغريقية، وكانت الاسكندرية بمكتباتها الشهيرة في طليعة هذه المراكز. ومع أن الرومان قضوا على حرية الإغريق إلا أنهم أقبلوا على اقتباس حضارتهم والاغتراف من مناهلها.

وأيقظني صوت المضيفة وهي تعلن اقترابنا من مطار أثينا، فعاودت النظر من النافذة علني أتثبت مما قرأت عن جغرافية اليونان، فهي تحتل الجزء الجنوبي من جزيرة البلقان، والجزر الواقعة في بحر ايجة والبحر الأيوبي.

ويرزخ كورنتوس يشطر اليونان إلى قسمين:

القسم الجنوبي هو البلويونيز (الموره) وأكبر مراكزه مدينة باتراس والقسم الشمالي أكثر ثراءً وازدحاماً بالسكان وبه أكثر المدن وخاصة أثينا، والموانىء بيرايوس وسالونيك وقوله. وبلاد اليونان جبلية في طابعها العام، وإن كانت قد اشتهرت بزراعة الزيتون والكروم.

وهبطنا في مطارها بعد أن دارت بنا الطائرة عدة مرات فوق المدينة ولبثنا فيه ثلاثين دقيقة، ومطار أثينا يعتبر مطارا متواضعا ويبدو على العاملين فيه الحرص على سمعة بلادهم؛ فقد كانت

معاملتهم لبقة وحسنة وتعلوشفاههم البسمة ، وفي ردهة الاستقبال وضعت لوحة كبيرة معلقة لتعرف القادمين بأهم المعلومات عن الأنظمة الخاصة بالنقد وما ينبغي و يسمح به في الدخول والخروج .

وكان بجواري مجموعة من الاخوة السعوديين ، فقلت تعقيبا على ما قرأنا :

يزين الغريب إذا ما اغترب	ثلاث فمنهن حسن الأدب
وثانية حسن أخلاقه	وثالثة اجتناب الريب

و بدأت السيارة تجوب شوارع العاصمة نحو الفندق ، وكان جو العاصمة سماء مشرقة صافية الأديم ، وكأن السائق قد أراد بطريق غير مباشر أن يرينا عظمة أجداده ، فمر بنا في العديد من الشوارع والميادين التي تريك الطابع القديم الحديث ؛ فقد بنيت على أحدث النظم المعمارية مع المحافظة على الطابع الإغريقي القديم ، رغم إعادة تخطيطها منذ ١٥٠ سنة بعد أن حصلت اليونان على استقلالها ، وكنت اليونان قد وقعت كلها في يد الأتراك سنة ١٤٥٦م .

وفي مطلع القرن التاسع عشر ساورت اليونان ، أحلام الاستقلال ، و بدأت ثورتها سنة ١٨٢١ ، وساندها أدعياء الحرية في أور با ، فحالفها التوفيق ، وحصلت على استقلالها وضمت إليها كريت سنة ١٩١٣م .. وتوقفت أحداث التاريخ في خاطري عندما توقف السائق أمام مدخل الفندق المسمى « برزدنت » .

وخلال وجودي هنالك تمكنت من زيارة العديد من المعالم والمتاحف والآثار ولعل أهمها وأشهرها هو الأكرو بول. وهو عبارة عن مرتفع جبلي تقوم عليه بعض المعابد القديمة ، و يقع في الجنوب من مدينة أثينا ، يعلوعلى مستوى السهل حوالي خمسين أو ستين مترا طوله يتجاوز الثلا ثمائة متر وعرضه حوالي مائة وخمسين مترا تقريبا ، و ينحسر جانباه الشمالي والشرقي عن هوة سحيقة ، و ينحدر جانبه الجنوبي بميل شديد ، ولكن يمكن ارتقاؤه من الجانب الغر بي ، خصص منذ عهد بعيد لإقامة الهياكل لآلهة المدينة و يكتسب أكرو بول أثينا مظهرا رائعاً ، ببوابته الفخمة وحرسه التقليدي الذي يرتدي الزي الإغريقي القديم .

و وسط اليونان وعلى صخرة اكروكورنثوس التي يبلغ ارتفاعها حوالي ٥٧٥ مترا تقع أطلال معبد أفروديت إلهة الحب والجمال والإخصاب في الأساطير اليونانية القديمة ، و يقال إنها هي المعبودة الشرقية (عشتروت) وقد لقبها الرومان بـ « فينوس » .

ولعل أهم ما تتميز به هذه البلاد هو موقعها في مفترق الطرق بين قارات ثلاث « أور با وآسيا وافريقيا » ـــ وأجمل ما في الموقع هوبحارها الممتدة وجزائرها المتعددة ومناظرها الطبيعية ..

تزدان مدينة أثينا الحديثة رغم تاريخها القديم بالعديد من المتاحف التي يعود بعضها إلى القرن

السادس قبل الميلاد ، وكان المرشدون يركزون في أحاديثهم معنا على الأساطير اليونانية القديمة التي تحتاج إلى بحث وتدقيق وكذا رووا لنا قصصا عن فلاسفة اليونان كسقراط وأفلاطون وعن الأماكن التي كانوا يجلسون فيها للدراسة والتعليم . .

كما قمت بزيارة لبعض المتاحف إذ أن المتاحف في هذا العصر تقدم معارف متنوعة ، بل هي مصدر للباحث والمؤرخ . وزيارة المتاحف تختصر على المرء الكثير من الجهد والوقت ، ففي مكان واحد يستطيع الزائر أن يتعرف على فترة تاريخية كاملة . ولعل المتحف الوطني أقرب المتاحف لنا ، وهو مفتوح من التاسعة صباحاً ، يحتوي على أهم الآثار اليونانية وقد عرض معظمها في عرض علمي بديع موزع على قاعاته التي بلغت ستا وخمسين قاعة .

كما قمت بزيارة للمتحف البيزنطي وكذا متحف اثينا الذي يحكي قصة أثينا و يقدم لها صورا خلال تاريخها الطويل .

أما المتحف البحري فتوجد به مخلفات وآثار المعارك البحرية التي خاضها اليونان بحرا — ولما كانت اليونان تتمتع بميزة لا يضاهيها فيها بلد آخر ، ألا وهي كثرة الجزر ، فلذلك حرص المشرفون على السياحة بها على أن تتضمن برامجهم رحلات بحرية ممتعة ، وقد شاركت ومجموعة من الإخوان السعوديين في رحلات متجهة إلى كل من جزر هيدرا ، و بوروس ، وايجينيا . . . ولعل أجمل ما في هذه الجزر هو الهدوء إلى جانب الطبيعة الغناء .

و وجود المركبات التي تجرها الخيول «فايطون» والتي تستخدم للنزهة والاستجمام إلى جانب توفر كافة الخدمات السياحية ، هذا ما جعل هذه الجزر تستقطب السياح الذين كنا نصادف أفواجهم الوافدة من كل بقاع العالم ، ولم يفت الجهات المسؤولة أن تقيم في هذه الجزر المتاحف التي رغم بساطتها تنمي الشعور الوطني لدى المواطنين إلى جانب جانبها الثقافي للسائح ، فكانت كل هذه الأشياء إلى جانب ما تزدان به هذه الجزر من أشجار مختلفة ، وزهور متناسقة ، وطيور متناغمة مما يبعث في النفس أريجا روحانيا بروعة الجمال .

ولم تستأثر الجزر وحدها بكل الرحلات ، بل جرى تنظيم رحلات برية إلى بعض الأماكن الشهيرة بواسطة حافلة ، حيث ذهبنا إلى دلفي عبر سهول بوتبيا الخضراء ، وعندما اقتربنا من بلدة بوتبيا استرحنا قليلا ليشرح لنا المرشد علاقة هذه البلدة بالمسرحية المعروفة «عقدة **أوديب**» .

كما مررنا بمدينتي ليفاديا وآرخوما الشهيرتين بصناعة السجاد والبساط الملون ، حتى وصلنا إلى مدينة دلفي مركز العالم القديم كما يطلقون عليها ، ولم يفتنا فيها زيارة متحفها الظريف الأنيق إلى جانب أطلالها العريقة ومشاهدة جبل بارناسوس المطل على مناظر جميلة خلابة .

والمواطن اليوناني في مجموعه بشوش الوجه، رغم ما يبدو على مظهره من البساطة، فهو سعيد بيومه مستمتع بوقته ولذلك تجد المطاعم والمقاهي والمكتبات والمعارض والمتاحف مكتظة بمن فيها تبدو عليهم ــ كما في مدنهم ــ الأناقة والنظافة وعدم كراهية الغريب وبعد تمضية بضعة أيام غادرتها والنفس مفعمة بشيء من الذكريات.



الخاتمة

عدت من رحلة الحياة كما كنت
وكل لو كره في طريق
حاملا من غرائب البر والبحر
ومن كل محدث وعريق

* * *

و بعد فإن للرحلات فوائد شتى وكما قيل:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا
وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد

فالسفر نافذة مفتوحة على العالم وطريق سهل ومفيد للمعرفة وتنمية الخبرات فالمرء يستفيد مما يشاهده من العادات والتقاليد والفوائد التاريخية والجغرافية والتعرف على اللغات وأسماء الأماكن والديار، وفي هذه الرحلات تعرضت لأشياء كثيرة ومواقف طريفة وركبت على متن الطائرات ومتن البحر وفي بعض الحالات امتطيت صهوة الخيل كما حدث لي في الأندلس ـ وفي هذه الرحلات سبرت الكثير من البلدان وطفت العديد من العواصم والأمصار معتبرا ومستفيدا، وشاهدت الكثير من البلدان الراقية والمناظر الساحرة والشواطىء البديعة والأنهار الجارية والثلوج المتراكمة والموانىء الجميلة والبحيرات الساحرة والجبال العالية والآثار العريقة وغير ذلك من عجائب الدنيا الزاخرة بالفعاليات الحضارية وذات الدلالة التاريخية كالآثار وما تزخر به من تراث حضاري، وستظل تلك المشاهد مجرد ذكريات.. ولم أكن بتلك الديار مفتونا بل مستفيدا ومعتبرا.

وما كل برق لاح لي يستفزني
ولا كل أهل الأرض أرضاه منعما
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى
ولكن نفس الحر تحتمل الظما

إن شوقي لبلادي وحبي لأ رضها وأديمها وثراها يتدفق في شرايين القلب و يسري في النفس و يدب في الجسم و ينشأ عنه الحب والاعتزاز والفخر.. إنها الأ رض الحبيبة التي تملأ جونا عطرا وعيوننا سحرا وقلوبنا فتنة وحباً لها وما أصدق قول الشاعر:

وحبب أوطان الرجال اليهمو
مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو
عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا



فهرست

الموضوع	الصفحة



كتب مطبوعة صدرت للمؤلف

١ ـ كلمات متناثرة

٢ ـ في التربية والثقافة

٣ ـ المفيد في الإنشاء

٤ ـ قصة إعداد المعلم في المملكة

٥ ـ رحلات وذكريات



إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة :

الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

• الجبل الذي صار سهلا (نقد)	الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية (قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية (نقد)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (نقد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• الدوامة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى (قصة طويلة) (نقد)	الدكتورة أمل محمد شطا
• موضوعات اقتصادية معاصرة	الدكتور علي بن طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين؟	الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين	الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل	الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة	الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف إنسانية (ديوان شعر) (نقد)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام (نقد)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• وقفة	الدكتور عبدالله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (نقد)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن	الأستاذ عبدالله الحصين
• كتاب في علم إدارة الأفراد	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
• الإبحار في ليل الشجن (ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجهاً لوجه	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• الحضارة تحد (نقد)	الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف (قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
• الرجولة عماد الخلق الفاضل	الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم	الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (تراجم)	الأستاذ محمد علي مغربي
• النجم الفريد (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• مكانك تحمدي	الأستاذ أحمد محمد جمال
• قال وقلت	الأستاذ أحمد السباعي

• نبض	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• نبت الأرض	الدكتورة فاتنة أمين شاكر
• السعد وعد (مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
• قصص من سومرست موم (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• عن هذا وذاك	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• الأصداف (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• الأمثال الشعبية في مدن الحجاز	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار تربوية	الدكتور ابراهيم عباس نتو
• فلسفة المجانين	الأستاذ سعد البواردي
• خدعتني بحبها (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله بوقس
• نقر العصافير (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• التاريخ العربي وبدايته (الطبعة الثانية)	الأستاذ أمين مدني
• الحجاز بين اليمامة والحجاز (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بن خميس
• تاريخ الكعبة المعظمة (الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• خواطر جريئة	الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• السنيورة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر)	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• جسور إلى القمة (تراجم)	الأستاذ عزيز ضياء
• تأملات في دروب الحق والباطل	الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
• الحمى (ديوان شعر)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• قضايا ومشكلات لغوية	الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
• ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة	الأستاذ محمد علي مغربي
• زيد الخير	الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
• الشوق إليك (مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• كلمة ونصف	الأستاذ محمد حسين زيدان
• شيء من الحصاد	الأستاذ حامد حسن مطاوع
• أصداء قلم	الأستاذ محمود عارف
• قضايا سياسية معاصرة	الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
• نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي	الأستاذ بدر أحمد كريم
• الإعلام موقف	الدكتور محمود محمد سفر
• الجنس الناعم في ظل الإسلام	الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• ألحان مغترب (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• غرام ولادة (مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• سير وتراجم	الأستاذ عمر عبدالجبار
• الموزون والمخزون	الشيخ أبوتراب الظاهري
• لجام الأقلام	الشيخ أبوتراب الظاهري
• نقاد من الغرب	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• حوار.. في الحزن الدافيء	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• صحة الأسرة	الدكتور زهير أحمد السباعي
• سباعيات (الجزء الثاني)	الأستاذ أحمد السباعي
• خلافة أبي بكر الصديق	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• البترول والمستقبل العربي	الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة

العنوان		المؤلف
إليها .. (ديوان شعر)		الأستاذ حسين عبدالله سراج
من حديث الكتب (ثلاثة أجزاء)		الأستاذ محمد سعيد العامودي
أيامي		الأستاذ أحمد السباعي
التعليم في المملكة العربية السعودية		الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
أحاديث وقضايا إنسانية		الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
البعث (مجموعة قصصية)		الأستاذ محمد علي مغربي
شمعة ظمأى (ديوان شعر)		الدكتور أسامة عبدالرحمن
الإسلام في نظر أعلام الغرب		الشيخ حسين عبدالله باسلامة
حتى لا نفقد الذاكرة		الأستاذ سعد البواردي
مدارسنا والتربية		الأستاذ عبدالواهاب عبدالواسع
وحي الصحراء		الأستاذ عبدالله بلخير الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
طيور الأبابيل (ديوان شعر)		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
قصص من تاغور (ترجمة)		الأستاذ عزيز ضياء
التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية		الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
زوجتي وأنا (قصة طويلة)		الدكتور عصام خوقير

تحت الطبع :

العنوان		المؤلف
معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان		الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
ماما زبيدة (مجموعة قصصية)		الأستاذ عزيز ضياء
عام ١٩٨٤ لجورج أورويل (قصة مترجمة)		الأستاذ عزيز ضياء
وجيز النقد عند العرب		الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
هكذا علمني ورد زورث		الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
الطاقة نظرة شاملة		الدكتور عبدالهادي طاهر
عمر بن أبي ربيعة		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
رجالات الحجاز (تراجم)		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
لا رق في القرآن		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
من مقالات عبدالله عبدالجبار		الأستاذ عبدالله عبدالجبار
دعوة ودفاع		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
إليكم شباب الأمة		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
لن تلحد		الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
سرايا الإسلام		الشيخ أبوتراب الظاهري
حكاية جيلين		الدكتور عبدالله حسين باسلامة
التنمية قضية	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمود محمد سفر
قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	(الطبعة الثانية)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
غداً أنسى (قصة طويلة)	(الطبعة الثانية)	الدكتورة أمل محمد شطا
تاريخ عمارة المسجد الحرام	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد السباعي
الحضارة تحد	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمود محمد سفر
الجبل الذي صار سهلا	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد قنديل

سلسلة : **الكتاب الجامعي**

صدر منها :

العنوان	المؤلف
• الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية	الدكتور مدني عبدالقادر علاقي
• الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية)	الدكتور فؤاد زهران الدكتور عدنان جمجوم الدكتور محمد عيد
• النمو من الطفولة إلى المراهقة	الدكتور محمد جميل منصور الدكتور فاروق سيد عبدالسلام
• الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا	الدكتور عبدالمنعم رسلان
• النفط العربي وصناعة تكريره	الدكتور أحمد رمضان شقلية
• الملامح الجغرافية لدروب الحجيج	الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر
• علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية)	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• مبادىء القانون لرجال الأعمال	الدكتور محمد ابراهيم أبوالعينين
• الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية	الأستاذ هاشم عبده هاشم
• قراءات في مشكلات الطفولة	الدكتور محمد جميل منصور
• شعراء التروبادور (ترجمة)	الدكتورة مريم البغدادي
• الفكر التربوي في رعاية الموهوبين	الدكتور لطفي بركات أحمد
• النظرية النسبية	الدكتور عبدالرحمن فكري الدكتور محمد عبدالهادي كامل
• أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية)	الدكتور أمين عبدالله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق
• المدخل في دراسة الأدب	الدكتورة مريم البغدادي
• الرعاية التربوية للمكفوفين	الدكتور لطفي بركات أحمد
• أضواء على نظام الأسرة في الإسلام	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• الوحدات النقدية المملوكية	الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي
• الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبدالوهاب علي الحكمي
• هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم	الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر
• التجربة الأكاديمية لجامعة البترول والمعادن	الدكتور خضير سعود الخضير

تحت الطبع :

العنوان	المؤلف
• تاريخ طب الأطفال عند العرب	الدكتور محمود الحاج قاسم
• المنظمات الاقتصادية الدولية	الدكتور حسين عمر
• الاقتصاد الاداري	الدكتور فرج عزت
• التعلم الصفي	الدكتور محمد زياد حمدان

سلسلة :

رسائل جامعية

صدر منها :

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزّي
- الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
- القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبدالله باقازي
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- النظرية التربوية الإسلامية — الأستاذة آمال حزة المرزوقي
- نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة) — الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
- الجانب التطبيقي في التنمية الإسلامية — الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبدالحي رضوان
- دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام — الأستاذة فتحية عمر حلواني
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام — الأستاذة نورة بنت عبدالملك آل الشيخ
- دراسة اثنوغرافية لمنطقة الحسا (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية (دراسة ميدانية انثروبولوجية حديثة) — الأستاذ أحمد عبدالإله عبدالجبار

تحت الطبع :

- افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبدالكريم علي باز
- الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار — الدكتور فاروق صالح الخطيب
- تقييم النمو الجسماني والنشوء — الدكتورة ظلال محمود رضا
- العقوبات التفويضية وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام وحتى منتصف القرن الثالث عشر — الأستاذ محمد فهد عبدالله الفعر

- من فكرة لفكرة — الأستاذ مصطفى أمين
- رحلات وذكريات — الأستاذ عبدالله حمد الحقيل

تحت الطبع :

- قراءات في التربية وعلم النفس — الأستاذ فخري حسين عزّي، الدكتور لطفي بركات أحمد
- الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبدالله عباس بن صديق
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
- ملامح وأفكار — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- المذاهب الأدبية في شعر الجنوب — الدكتور علي علي مصطفى صبح
- النظرية الخلقية عند ابن تيمية — الدكتور محمد عبدالله عفيفي
- الكشاف الجامع لمجلة المنهل — الأستاذ عبدالله سالم القحطاني
- ديوان حمام — الأستاذ محمد مصطفى حمام
- رحلة الأندلس — الدكتور حسين مؤنس
- فجر الأندلس — الدكتور حسين مؤنس
- قريش والإسلام — الدكتور حسين مؤنس
- الماء ومسيرة التنمية — الأستاذ مصطفى نوري عثمان
- الدفاع عن الثقافة — الأستاذ عبدالعزيز شرف
- الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث — الأستاذ على مصطفى عبداللطيف السحرتي
- ذكريات لا تنسى — الأستاذ محمد المجذوب
- رحلات وذكريات — الأستاذ عبدالله حمد الحقيل

كتاب الناشئين

صدر منها :

مجموعة: وطني الحبيب
- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق
- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

مجموعة: حكايات ألف ليلة وليلة :
- السندباد والبحر — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- الديك المغرور والفلاح وحماره — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الطاقية العجيبة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الزهرة والفراشة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سلمان وسليمان — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- زهور البابونج — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- اليد السفلى — الدكتور محمد عبده يماني، الأستاذ يعقوب محمد اسحق
- سنبلة القمح وشجرة الزيتون — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- نظيمة وغنيمة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- جزيرة السعادة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الحديقة المهجورة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي

كتاب للأطفال

صدر منها :

- **الصرصور والنملة** — الأستاذ عمار بلغيث
- **السمكات الثلاث** — الأستاذ عمار بلغيث
- **النخلة الطيبة** — الأستاذ اسماعيل دياب
- **الكتكوت المتشرد** — الأستاذ عمار بلغيث
- **المظهر الخادع** — الأستاذ عمار بلغيث
- **بطوط وكتكت** — الأستاذ اسماعيل دياب

مجموعة : لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد ● الكلب ● السلحفاة ● الأسد ● الحمار الأهلي ● الفرس ● الغزال ● الوعل ● الضفدع
- الضب ● الغراب ● الجمل ● البغل ● الفراشة ● الدجاج ● الحمار الوحشي ● الجاموس ● الدب
- الثعلب ● الأرنب ● الذئب ● الفأر ● الخروف ● البط ● الببغاء ● الحمامة ● الخرتيت
- البوم ● البجع ● الهدهد ● الكنغر ● الخفاش ● النعام ● فرس النهر ● التمساح

مجموعة : حكايات كليلة ودمنة — إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- عندما أصبح القرد نجارا
- أسد غررت به أرنب
- الغراب يهزم الثعبان
- المكاء التي خدعت السمكات

تحت الطبع

- لقد صدق الجمل
- سمكة ضيعها الكسل
- الكلمة التي قتلت صاحبتها
- قاض يحرق شجرة كاذبة

مجموعة : التربية الإسلامية — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الله أكبر ● الصــلاة ● صلاة المسبوق ● الشهادتان ● التيمم
- قد قامت الصلاة ● الاستخارة ● صلاة الجمعة ● أركان الإسلام ● الوضــوء
- الصــوم ● صلاة الجنازة ● صلاة الكسوف والخسوف

مجموعة : حكايات للأطفال — ينقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- الحصان الذي فقد ذيله
- تورتة الفراولة
- ضيوف نار الزينة
- الضفدع العجوز والعنكبوت
- الكؤوس الفضية الاثنتا عشر
- سرحانة وعلبة الكبريت
- الجنيات تخرج من علب الهدايا
- السيارة السحرية
- كيف يستخدم الملح في صيد الطيور

تحت الطبع

- الأرنب الطائر
- معظم النار من مستصغر الشرر
- لبنى والفراشة
- ساطور حمدان
- وأدوا الأمانات إلى أهلها

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English by Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.

  By: F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED
- Zaki Mubarak: A Critical Study.

  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan
- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference Second Edition'
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.
- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat

  By: Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk
- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By: Dr. Baha Bin Hussein Azzee
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia.
- An Ethnographic Study of Al-Hasa Region of Eastern Saudi Arabia

  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib